التوحيد الخالص
www.twhed.com

التبيان في بيان

أحكام الناس والديار هذا الزمان

كتبه
أبو الفضيل ناصر الدين بن عبد الرحمن النعيمي

نسخة مراجعة بتاريخ: ذو الحجة ١٤٣١ هـ

مكتبة دار الحنفاء
طبعة سنة ١٤٣١ هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهد الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُ ذُو الفَضْلِ العَظِيمِ﴾ (الأنفال:٢٩).

قوله تعالى ﴿يجعل لكم فرقانا﴾ أي مخرجاً في الدين من الشبهة والضلالة. قاله السُدِّي.

وقال مجاهد: مخرجاً في الدنيا والآخرة.

وقال مقاتل بن حيان: مخرجاً في الدين من الشبهات.

وقال سهل: نوراً في القلب يفرق بين الحق والباطل.

وقال الجنيد: إذا اتقى العبد ربه جعل له تبياناً يتبين به الحق من الباطل، وهذه نتيجة التقوى.

وقال ابن زيد: هداية في قلوبكم تفرقون بها بين الحق والباطل.

وقال ابن إسحق: فصلا بين الحق والباطل يظهر الله به حقكم ويطفئ باطل من خالفكم.

وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (الحديد:٢٨).

قال البغوي: أي يجعل لكم سبيلا واضحا في الدين تهتدون به.

تقوى الله هي مدار الدين كله، وأعظم ما يجب علينا أن نتقيه الشرك بالله وموالاة أعداء الله المشركين، فقد أمرنا الله عز وجل بالبراءة منهم وأن نتأسى بأنبياء الله في ذلك قولا وعملا، قال تعالى: ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ (الممتحنة:٤).

فالبراءة من الكافرين الذين لا يؤمنون بالله وحده ولا يكفرون بالطاغوت أصل عظيم، لا يتحقق بدونه إسلام، ولا إيمان، ومن لم يتبرأ منهم ومما يعبدون من دون الله فليس من الله في شيء، ولا من أنبيائه في شيء، ولا من المؤمنين، بل هو من أعداء الله ورسوله الكافرين المشركين.

فالواجب على كل من عرف التوحيد أن يبادر بالبراءة ممن عبد مع الله غيره، وأشرك معه سواه، وأن يتقرب إلى الله عز وجل بمقْتِ الكافرين وبغضهم، وأن يدين لله بتكفيرهم وإنكار ما هم عليه من الدين الباطل.

ويجب على أصحاب الدعوة إلى دين الله أن يسعوا في إيضاح وتميز سبيلهم عن سبيل أعداء الله المجرمين، مقتدين بكتاب الله ونهج رسوله وأئمة الدين الأخيار من بعده.

قال تعالى:(قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ) (يوسف:١٠٨).

وقال ﷻ: (وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ) (الأنعام:٥٥).

وهذا البحث يتحدث عن منهج المسلم في التفريق بين المسلمين إخوته في الدين وبين الكافرين المخالفين له في الدين، والتفريق بين دار الكفر ودار الإسلام.

وهو من سبعة فصول:

الفصل الأول: في بيان حقيقة دين الإسلام.

الفصل الثاني: المسلم على بصيرة من دينه ونور من ربه يفرق به بين الحق وأهله والباطل وأتباعه.

الفصل الثالث: تمييز الحنفاء بين أهل الحق والضلال.

الفصل الرابع: الناس قسمان إما مسلم موحد وإما كافر مشرك.

الفصل الخامس: أحكام الديار.

الفصل السادس: توضيح فتوى ابن تيمية حول دار ماردين.

الفصل السابع: في أحوال الديار اليوم وعلو الأحكام فيها.

نسأل الله العلي العظيم أن تكون أعمالنا وأقوالنا خالصة لوجهه الكريم، وصواباً موافقاً لشرعه القويم، وأن يجعلنا على صراط مستقيم، ونعوذ بالله أن نكون من الأخسرين أعمالاً الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً.

اللهم اعصمنا بدينك وبسنة نبيك من الاختلاف في الحق، ومن اتباع الهوى، ومن سبل الضلالة، ومن شبهات الأمور، ومن الزيغ والخصومات.

بيان حقيقة الدين الذي ندين به لله عز وجل دين الإسلام

ديننا هو الدين الذي بعث الله به رسله وأنبياءه وهو دين الله الذي لا يقبل من العباد سواه، قال تعالى: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (آل عمران:٨٥)، ﴿ وَأَنَّ هَـذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (الأنعام:١٥٣)، وصراط الله المستقيم هو الإسلام.

والإسلام هو الاستسلام لله وحده بعبادته وحده وطاعة رسوله، والدليل قوله تعالى: ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَماً لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ (الزمر:٢٩).

هذا المثل ضربه الله عز وجل يبين به الفرق بين المسلم الذي يعبد إلها واحدا، وبين المشرك الذي يعبد آلهة غير الله؛ فالعبد الذي يطيع سيداً واحداً هو مثل المسلم الذي لا يعبد إلا الله، ففيه دليل على أن الإسلام هو الاستسلام لله وحده.

والإسلام هو ملة إبراهيم عليه السلام، قال تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (البقرة:١٣١)، أي أسلمت لله وحده.

وقال عز وجل: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً﴾ (النساء:١٢٥).

فالإسلام يتضمن: الاستسلام والانقياد والاتباع، ويتضمن الإخلاص، وذلك هو ملة إبراهيم عليه السلام الحنيفية السمحة.

فالذي يدين بالإسلام يستسلم وينقاد ويتبع ويحكِّم شرع الله، ولا يستكبر عن عبادة الله، ولا يستسلم وينقاد ويتبع ويحكِّم غير شرع الله.

فالمسلم من استسلم لله وحده، وأخلص عبوديته له بقبول شرعه والانقياد له ورفض ما سواه والكفر به.

أما من استسلم لله واستسلم لغيره فقد جعل العبودية لله ولغيره، ولا يمكن أن يكون هذا مسلما لله حتى يفرد الله بالاستسلام والعبودية ويكفر بعبودية غيره.

وأصل هذا الدين وأساسه وقاعدته هو شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فأما شهادة أن لا إله إلا الله فمعناها نفي الإلهية عن كل ما سوى الله، وإثباتها لله وحده، والإلهية هي العبادة.

والدليل قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ اللَّهُ لا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ (النحل:٥١).

وقوله: ﴿ أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ (صّ:٥)، هذا الذي فهمه أهل الفصاحة الذين أُنزل

القرآن بلغتهم لما قال لهم رسول الله ﷺ قولوا لا إله إلا الله تفلحوا، فعرفوا أنه يريد منهم أن يفردوا الله بالألوهية ويكفروا بكل إله يعبد من دونه.

وهذا ما فهمه أيضا قبلهم قوم هود لما قال لهم نبيهم: ﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ﴾ (لأعراف:٦٥)، فأجابوا بقولهم: ﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (لأعراف:٧٠)، وما فهمه أيضا سائر الكفار لما دعاهم رسلهم لتوحيد الله.

فهل عرف المنتسبون للإسلام اليوم من لا إله إلا الله ما عرفه قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم شعيب وأهل اللغة والفصاحة من العرب؟!

هذه الكلمة العظيمة هي ملة إبراهيم عليه السلام، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ * إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ * وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (الزخرف:٢٨:٢٧:٢٦).

فالكلمة هي لا إله إلا الله ومعناها البراءة مما يعبد المشركون من دون الله وإخلاص العبادة لله وحده.

وهي تتكون من ركنين: النفي والإثبات، الكفر بالطاغوت والإيمان بالله، قال تعالى: ﴿ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ (البقرة: من الآية٢٥٦).

وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ (النحل:٣٦).

الركن الأول: النفي (لا إله) وهو الكفر بما يعبد من دون الله. ويتحقق بما يلي:

- **اعتقاد بطلان كل ما يعبد من دون الله، وكل عبادة تصرف لغير الله وأنها شرك وكفر بالله وضلال مبين.**

قال تعالى: ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ﴾ (لقمان: من الآية:٣٠).

وقوله تعالى: ﴿ فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلالُ﴾ (يونس: من الآية:٣٢).

وقال ﷻ: ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (آل عمران:٨٥).

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ﴾ (الأعراف: من الآية١٩٤).

وقال ﷻ: (وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾ (الأحقاف:٥).

- **البراءة من الشرك ببغضه وإنكاره وتركه واجتنابه.**

والدليل قوله تعال: ﴿ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ (الأنعام: من الآية١٩).

وقال تعالى: ﴿ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ (النحل: من الآية:٣٦).

وقال سبحانه: ﴿ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ (المدثر:٥). الرجز: الأصنام، وهجرها تركها والبراءة منها.

وقال ﷻ: ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ (آل عمران: من الآية:٦٤).

وعن جَابِرُ بن عبد اللَّهِ قال سمعت رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يقول: ﴿ من لَقِيَ اللَّهَ لَا يُشْرِكُ بِهِ شيئا دخل الْجَنَّةَ وَمَنْ لَقِيَهُ يُشْرِكُ بِهِ دخل النَّارَ﴾ رواه مسلم.

فلا يكفي اعتقاد بطلان عبادة غير الله، بل لابد من بغضها، وإنكارها وتركها واجتنابها بالكلية.

وبغير ذلك لا يصح إسلام أحد أبداً.

فمن فعل شيئاً من هذا الشرك الأكبر فقد حبط عمله وصار من المشركين، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (الزمر:٦٥).

- البراءة ممن أشرك بالله بتكفيرهم وبغضهم ومعاداتهم.

الذين يشركون بالله يتخذون من خلقه معبودات يعبدونها من دون الله ﷻ ولولا هؤلاء ما حدث الشرك ولا عُبد أحد من دون الله، فكما لا يستقيم ولا يصح البراءة من المعبود دون البراءة من عبادته، لا يستقيم أيضا ولا يصح البراءة من المعبود وعبادته دون البراءة ممن جعله معبودا وصرف له العبادة من دون الله.

وليس المعبود من دون الله بأولى بالبراءة من العابد، لأن العبد المخلوق لا يصير إلها معبودا إلا بوجود من يشركه مع الله ويعبده معه؟!

بل إن الله عز وجل قدم البراءة من العابد على البراءة من المعبود في أكثر من آية من آيات كتابه البينات، قال تعالى: ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ (الممتحنة: من الآية٤).

وقال تعالى: ﴿ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي﴾ (مريم: من الآية٤٨).

وقال تعالى: ﴿ فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ ﴾ (مريم: من الآية٤٩).

وقال عز وجل: ﴿ وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ﴾ (الكهف: من الآية١٦).

وقال تعالى: ﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيّاً وَلا نَصْرَانِيّاً وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفاً مُسْلِماً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (آل عمران:٦٧). فمن لم يكن حنيفا مسلما على ملة إبراهيم وجب البراءة منه.

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ (الأنعام: من الآية:١٥٩).

وقال تعالى: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ* وَلا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ* وَلا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ * وَلا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ (الكافرون:١: ٦).

وأما الركن الثاني: الإثبات (إلا الله)، معناه إثبات الإلهية لله وحده دون شريك، أو بمعنى آخر إفراد الله بالعبادة والطاعة والولاء. ويتحقق بما يلي:

- الإيمان بأن الله وحده هو المستحق للعبادة دون سواه، وأن عبادته وتوحيده هو الحق والعدل والإسلام.

قال تعالى: ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ﴾ (لقمان: من الآية:٣٠).

وقوله تعالى: ﴿ فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلالُ﴾ (يونس: من الآية:٣٢).

وقوله: ﴿ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ (الأنعام: من الآية١٩).

وقوله: ﴿ إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً﴾ (طه:٩٨).

- إخلاص العبادة كلها لله.

والدليل قوله تعالى: ﴿ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ (هود:٢).

وقوله: ﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ (يوسف: من الآية٤٠).

وقوله: ﴿ وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ (الإسراء: من الآية٢٣).

وقوله: ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً ﴾ (النساء: من الآية٣٦).

وقوله: ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ (الأنعام:٨٢).

- إخلاص الولاء لله بموالاة أوليائه ومعاداة أعدائه.

والدليل قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّاً فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ (الأنعام: من الآية١٤).

وقوله: ﴿ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيّاً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَاناً مُبِيناً﴾ (النساء: من الآية١١٩).

وقوله: ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا..﴾ (المائدة:٥٥).

وقوله: ﴿ إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ (لأعراف:١٩٦).

وقوله: ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ (البقرة: من الآية٢٥٧).

إذاً معنى لا إله إلا الله:

لا إله إلا الله = لا نعبد إلا الله، ولا نشرك به شيئا، ونبرأ ممن يشرك به شيئا.

لا إله إلا الله = لا ندعو إلا الله، ولا ندعو أحداً غيره، ونبرأ ممن يدعو غيره.

لا إله إلا الله = لا نصلي إلا لله، ولا نصلي لأحد غيره، ونبرأ ممن يصلي لغيره.

لا إله إلا الله = لا نحكم إلا بشريعة الله، ولا نحكم بشريعة الطاغوت، ونبرأ ممن يحكم بشريعة الطاغوت.

لا إله إلا الله = لا نتحاكم إلا إلى شريعة الله، ولا نتحاكم إلى شريعة الطاغوت، ونبرأ ممن يتحاكم إلى شريعة الطاغوت.

لا إله إلا الله = لا نحرم إلا ما حرم الله، ولا نحل إلا ما أحله، ولا نشرع شيئا لم يأذن به، ونبرأ ممن يحرم ويحلل ويشرع بغير إذن الله ومن يتبعهم.

لا إله إلا الله = لا نقبل إلا تشريع الله، ولا نقبل تشريعاً من غير الله، ونبرأ ممن يقبل تشريعا من غير الله.

فكلمة التوحيد هي أصل الدين وحقيقته، ومبدؤه ومنتهاه، وليس المراد نطقها باللسان فقط من غير اعتقاد ولا عمل، بل لابد من قولها والعمل بما دلت عليه باطنا وظاهرا، فمن لم يعرف معناها، أو عرفه ولم يعتقده، أو اعتقده ولم يعمل بما دلت عليه، فكل هؤلاء غير مؤمنين بلا إله إلا الله وإن نطقت بها ألسنتهم.

فجاهل التوحيد يستحيل أن يكون مسلما؛ لأن الذي لا يعرف معنى لا إله إلا الله لا يمكن أن يكون معتقدا لها مصدقا بها؛ فالاعتقاد والتصديق لا يكون إلا بعد العلم بحقيقة الشيء وصحته.

ولا يمكن أن يكون شاهدا بها مقرا بما دلت عليه؛ لأن الشهادة والإقرار لا يكون إلا بعد العلم بالمشهود به.

ولا يمكن أن يكون عاملا بها؛ لأنه لا يفرق بين التوحيد والشرك.

فجاهل التوحيد انتفى عنه الاعتقاد والقول (الشهادة والإقرار) والعمل، ومما لا خلاف فيه أن التوحيد اعتقاد وقول وعمل، فكيف يستقيم في العقول والفطر والشرع الحكيم أن يكون جاهل التوحيد مسلما من غير اعتقاد ولا قول ولا عمل؟!!!

وأما الشهادة بأن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم، فهي الركن الثاني من الشهادتين.

ومضمون هذه الشهادة الإيمان بأن محمداً بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم رسول الله إلى الناس كافة، عربهم وعجمهم، وأنه خاتم الأنبياء والمرسلين، والإيمان بما جاء به من عند الله عز وجل، ومحبته، وتوقيره، ونصرته، واتباعه، وتحكيمه.

وهاتان الشهادتان هما أصل دين الإسلام، فمن أتى بهما فقد دخل في الإسلام، ومن أخلَّ بهما أو إحداهما، أو ارتكب ما يناقضهما فليس من الإسلام في شيء.

وليس المقصود التلفظ بحروفهما، بل لابد من معرفة معناهما، والعمل بمقتضاهما ظاهرا وباطنا باللسان والقلب والجوارح.

والأحكام في الدنيا تجري على ظاهر الأمر، فمن أظهر الإسلام حكمنا له به وكان من أهله له ما لنا وعليه ما علينا، ولا نخرجه منه إلا بأمر دل الكتاب أو السنة أو الإجماع على كفر صاحبه من اعتقاد أو قول أو فعل أو شك.

وأعظم ما ينقض الإسلام ويضاده الشرك بالله وهو عبادة غير الله ﷻ، وتسوية الخالق جل وعلا بأحد مخلوقاته مما لا يملك نفعا ولا ضرا، فمن عبد مع الله غيره فهو مشرك ولا يمكن أن يسمى مسلماً ولا حنيفا ولا موحداً.

فالشرك بالله عز وجل يهدم التوحيد الذي هو أصل الإسلام وحقيقته، ولا يجتمع التوحيد مع الشرك أبدا.

فمن اتخذ لله ندا، أو جعل له شريكا بأن صرف شيئا من خصائص الله لمخلوق من مخلوقاته، فهو كافر مشرك.

فالله ﷻ يقول: (قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ * وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ) (الزمر: ٦٤: ٦٥).

وحاشا رسل الله وملائكته أن يشركوا به.

وتأمل قوله في هذه الآية: (أَفَغَيْرَ اللَّهِ) يدخل في ذلك كل ما سوى الله، وقوله تعالى: (وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً) (الكهف: من الآية: ١١٠). فأي عبادة صرفت لغير الله فهذا هو الشرك مهما كان المعبود مع الله نبياً أو ملكاً أو صالحاً أو عالما أو حكيما أو حاكما أو رئيساً أو شجراً أو حجراً أو غير ذلك.

ومن أنواعه المنتشرة في الواقع المعاصر بين من يدّعون الإسلام ويتلفَّظون الشهادتين:

النوع الأول: اتخاذ أولياء من دون الله يعتقدون فيهم النفع والضر، ويخافونهم ويرجون منهم الشفاعة، ويعتقدون أنهم يقربونهم إلى الله زلفى.

والدليل قوله تعالى: (وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ) (يونس:١٨).

وقوله: (أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لا يَمْلِكُونَ شَيْئاً وَلا يَعْقِلُونَ) (الزمر:٤٣).

وقوله: (وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ) (الزمر: من الآية٣).

وقوله: (قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعاً وَلا ضَرّاً) (الرعد: من الآية١٦)، وقوله: (وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرّاً وَلا نَفْعاً وَلا يَمْلِكُونَ مَوْتاً وَلا حَيَاةً وَلا نُشُوراً) (الفرقان:٣).

النوع الثاني: التوجه لغير الله عز وجل بأنواع العبادة التي لا يستحقها إلا الله وحده، كدعاء الموتى، والذبح والنذر لهم، والطواف والعكوف والتبرك بقبورهم وتربتها، وغير ذلك مما هو معروف ومشاهد.

والدليل قوله تعالى: (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ) (البقرة: من الآية١٦٥).

وقوله: (وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَاداً لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ) (الزمر: من الآية٨).

وقوله: (يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُ وَمَا لا يَنْفَعُهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ) (الحج:١٢).

وقوله: (وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ) (الأحقاف:٥).

النوع الثالث: الشرك بالله في الحكم، وذلك بتشريع ما لم يأذن به الله، وتحليل ما حرم الله وتحريم ما أحله، واتخاذ شريعة ومنهج ودستور ما أنزل الله به من سلطان.

والدليل قوله تعالى: (إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ) (يوسف: من الآية٤٠).

وقوله: (وَلا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً) (الكهف: من الآية٢٦).

وقوله: (يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ) (آل عمران: من الآية١٥٤).

وقوله: (أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ) (لأعراف: من الآية٥٤).

وقوله: ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ ﴾ (الشورى: من الآية٢١).

وقوله: ﴿ اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ﴾ (لأعراف:٣).

وقوله: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ (الجاثية:١٨).

وقوله: ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ (التوبة: من الآية٣١).

النوع الرابع: الشرك في الطاعة والولاء، وذلك بقبول التشريع من غير الله عز وجل، وتحكيمه والتحاكم إليه، وتعظيمه ونصرته، ومدحه وتزينه، فمن فعل شيئا من ذلك فقد آمن بالطاغوت وكفر بربه وخالقه، وصار من المشركين الكافرين.

والدليل قوله تعالى: ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ (التوبة: من الآية٣١).

وقوله: ﴿ وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ (آل عمران: من الآية٦٤).

وقوله: ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ (يّس:٦٠).

وقوله: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ﴾ (النساء: من الآية٦٠).

وقوله: ﴿ اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ﴾ (لأعراف:٣).

وقوله: ﴿ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ (الأنعام: من الآية١٢١).

وقوله تعالى: ﴿ لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ﴾ (آل عمران: من الآية٢٨).

وقوله: ﴿ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ﴾ (الكهف: من الآية١٠٢).

هذه بعض صور الشرك الأكبر المناقضة للإسلام والمنتشرة في الواقع المعاصر.

ونحمد الله الذي جعلنا مسلمين حنفاء لله غير مشركين به، وهدانا لإيمان به والكفر بالطاغوت وترك الشرك وكل ما يعبد من دون الله، ووفقنا للبراءة من المشركين العابدين لغيره، ورزقنا من الفرقان والنور ما نميز به بين الخبيث والطيب، وبين أولياء الله وأعدائه، فلِرَبِّنا الحمد على ذلك كله، وعلى جميع فضله وكثير نعمه وسعة كرمه وجميل إحسانه. والله أعلم.

الفصل الثاني

المسلم على بصيرة من دينه ونور من ربه يفرق به بين الحق وأهله والباطل وأتباعه

من عرف الدين الحق وشرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه، وبيِّنة وبصيرة من أمره، يستطيع أن يعرف ما يدين به قومه والناس من حوله، وأن يميز بين من يوافقه على هذا الدين من المسلمين، ومن يخالفه من الكفار المشركين، ولا يمكن أن يلتبس عليه حال الناس مادام هذا النور معه.

يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿ أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (الأنعام: ١٢٢).

قال ابن كثير في تفسيره:

هذا مثل ضربه الله تعالى للمؤمن الذي كان ميتا في الضلالة هالكا حائرا، فأحياه الله أي أحيا قلبه بالإيمان، وهداه له ووفقه لاتباع رسله، (وجعلنا له نورا يمشى به في الناس) أي يهتدي كيف يسلك، وكيف يتصرف به، والنور هو القرآن، كما رواه العوفي وابن أبي طلحة عن ابن عباس، وقال السُدّي: الإسلام، والكل صحيح، (كمن مثله في الظلمات) أي الجهالات والأهواء والضلالات المتفرقة (ليس بخارج منها) أي لا يهتدي إلى منفذٍ ولا مخلصٍ بما هو فيه.ا.هـ.

وقال ابن القيم في الفوائد: وقوله (وجعلنا له نورا يمشي به في الناس) يتضمن أموراً:

أحدها: أنه يمشي في الناس بالنور وهم في الظلمة، فمثله ومثلهم كمثل قوم أظلم عليهم الليل فضلوا ولم يهتدوا للطريق، وآخر معه نور يمشي به في الطريق ويراها ويرى ما يحذره فيها.

وثانيها: أنه يمشي فيهم بنوره فهم يقتبسون منه لحاجتهم إلى النور.

وثالثها: أنه يمشي بنوره يوم القيامة على الصراط إذا بقى أهل الشرك والنفاق في ظلمات شركهم ونفاقهم.ا.هـ.

وقال عز وجل: ﴿ أَفَمَنْ شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (الزُّمر: ٢٢).

قال الطبري في تفسيره:

يقول تعالى ذكره أفمن فسح الله قلبه لمعرفته والإقرار بوحدانيته، والإذعان لربوبيته والخضوع لطاعته، فهو على نور من ربه، يقول فهو على بصيرة مما هو عليه ويقين بتنوير الحق في قلبه، فهو لذلك لأمر الله متبعٌ، وعما نهاه عنه منتهٍ، فيما يرضيه، كمن أقسى الله قلبه وأخلاه من ذكره وضيقه عن استماع الحق واتباع الهدى والعمل بالصواب.ا.هـ.

وهذا النور المذكور في الآية السابقة هو البينة والبصيرة المذكورة في قوله تعالى:(قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ) (يوسف:١٠٨).

وقوله تعالى: (أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ) (هود:من الآية١٧).

والبينة هي الأمر الواضح والدليل والبرهان. قاله ابن وضاح في البدع والحوادث.

والبصيرة هي المعرفة التي يميز بها الحق والباطل. قاله البغوي في تفسيره.

في هذه الآيات السابقة إشارة إلى أن من عرف دين الله الحق، وشرح الله صدره لقبوله والانقياد له، لابد أن يحصل له من النور ما يفرق به بين الحق والباطل، فيعرف أن الإسلام هو دين الله الحق وأن ما سواه من الأديان ضلال وباطل، ويميز بين المسلمين والمشركين، وذلك لأن القلب لا يستقر ولايثبت إلا إذا كان عالما موقنا بالحق لا مرية له ولاشك، ولهذا كان من شروط كلمة الإخلاص العلم واليقين وهما قبل القبول والانقياد والعمل.

وهناك أمور لابد لكل من دخل في دين الله واختاره على سائر الأديان أن يكون منها على بينة وبصيرة وحجة وبرهان، ومن هذه الأمور:

١. لابد أن يكون على يقين أن الدين الذي يقبله الله ويرضاه هو الإسلام، وأن ما سواه باطل وضلال ومردود، فمن دان بالإسلام فهو على حق وهدى، ومن دان بغيره فهو كافر ضال.

٢. لابد أن يكون على يقين أن دين الإسلام لا يتحقق إلا بالإيمان بالله وعبادته وحده، والكفر بما يعبد من دونه، وتكفير المشركين، مع الإيمان بالرسول وبما أرسل به. وهو مضمون الشهادتين.

٣. لابد أن يميز بين التوحيد الذي هو أصل الدين وحقيقته، والشرك الذي ينقض الإسلام ويبطله.

٤. لابد أن يفرّق ويميز بين أولياء الله المسلمين الذين يعبدون الله وحده ولا يشركون به شيئا، وبين أعداء الله أهل الأديان الباطلة الذين لا يوحدون الله ويجعلون له شركاء من خلقه، فيوالي أولياء الله ويتبرأ من أعدائه.

وعلى هذا فكل مسلم له من النور والبصيرة ما يميز به بين التوحيد وأهله وبين الشرك وأتباعه، وليس بمسلم من لم يميز بين ذلك.

قال تعالى: (فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ) (هود:١٠٩).

قال ابن جرير الطبري في تفسيره: يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم فلا تكُ في شك يا محمد مما يعبد هؤلاء المشركون من قومك من الآلهة والأصنام أنه ضلال وباطل وأنه بالله شرك.ا.هـ.

وقال البغوي في تفسيره: (فلا تك في مرية) في شك مما يعبد هؤلاء أنهم ضُلَّالٌ.ا.هـ.

والمقصود أن كل من عرف دين الله الحق وشرح الله صدره للإسلام فهو على نور وبينة وبصيرة يفرق بها بين الحق وأهله وبين الباطل وأتباعه، ويمكنه بيسر وسهولة أن يعرف ما يدين به الناس من حوله.. من منهم على الدين الحق، ومن منهم على الباطل.. من منهم على دينه، ومن منهم على خلافه.

وهذا هو دأب المسلم قديما وحديثا، ولو لم يكن على الأرض مسلم سواه.

الفصل الثالث

تمييز الحنفاء بين أهل الحق وأهل الضلال

يقول المولى جلا وعلا عن خليله إبراهيم عليه السلام: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ....﴾ (الأنعام:٧٤) إلى قوله تعالى: ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ * إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (الأنعام:٨٧– ٧٩).

قال ابن جرير الطبري رحمه الله في تفسيره: (إني أراك وقومك في ضلال مبين) يقول إني أراك يا آزر وقومك الذين يعبدون معك الأصنام ويتخذونها آلهة في (ضلال) يقول في زوال عن محجة الحق وعدول عن سبيل الصواب، (مبين): يقول يتبين لمن أبصره أنه جور عن قصد السبيل، وزوال عن محجة الطريق القويم.

يعني بذلك أنه قد ضل هو وهم عن توحيد الله وعبادته الذي استوجب عليهم إخلاص العبادة له بآلائه عندهم دون غيره من الآلهة والأوثان......

﴿ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

يقول: وهذا خبر من الله تعالى ذكره عن خليله إبراهيم عليه السلام أنه لما تبين له الحق وعرفه شهد شهادة الحق، وأظهر خلاف قومه أهل الباطل وأهل الشرك بالله، ولم يأخذه في الله لومة لائم، ولم يستوحش من قيل الحق والثبات عليه مع خلاف جميع قومه لقوله وإنكارهم إياه عليه، وقال لهم يا قوم إني بريء مما تشركون مع الله الذي خلقني وخلقكم في عبادته من آلهتكم وأصنامكم إني وجهت وجهي في عبادتي إلى الذي خلق السماوات والأرض الدائم الذي يبقى ولا يفنى ويحيي ويميت لا إلى الذي يفنى ولا يبقى ويزول ولا يدوم ولا يضر ولا ينفع، ثم أخبرهم أن توجيهه وجهه لعبادته بإخلاص العبادة له والاستقامة في ذلك لربه على ما يجب من التوحيد لا على الوجه الذي يوجه له وجهه من ليس بحنيف ولكنه به مشرك إذ كان توجيه الوجه لا على التحنيف غير نافع موجهه بل ضاره ومهلكه.

﴿ وما أنا من المشركين﴾ يقول ولست منكم أي لست ممن يدين دينكم ويتبع ملتكم أيها المشركون.ا.هـ.

وقال تعالى: ﴿ قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (الأنبياء: ٥٤).

وقوله: ﴿ قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ * فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ (الشعراء: ٧٥:٧٦:٧٧).

فالملاحظ هنا أن الخليل عليه السلام تبرأ من أبيه وقومه وآبائهم الذين اتبعوهم على ضلالهم، ولم يوالِ منهم إلا من آمن بالله وحده وكفر بما يعبد من دونه.

قال تعالى: ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ (الممتحنة: من الآية٤).

وقال في آية أخرى: ﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (إبراهيم:٣٦).

وقال تعالى: ﴿ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ (مريم: من الآية٤٨)، قال البغوي: قال مقاتل كان اعتزاله إياهم أنه فارقهم من كوثى فهاجر منها إلى الأرض المقدسة.ا.هـ.

ولا يقال أن إبراهيم عليه السلام عَلِمَ حال قومه ومن كانوا قبلهم بوحي من الله، لأنه لو كان هذا الأمر لا يعلم إلا بوحي من الله لما كلفنا الله عز وجل ما كلَّف به رسله، وجعل لنا أسوة حسنة في براءة إبراهيم من أبيه وقومه وما يعبدون من دون الله إلى يوم القيامة، ولا نحتاج لوجود نبي بيننا لكي يحدد لنا المسلمين الذين لهم حق الولاء والكافرين الذين نحن منهم برآء.

وقال تعالى عن الفتية المؤمنة أصحاب الكهف: ﴿ هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آَلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا﴾ (الكهف:١٥).

جاء في تفسير البغوي: (هؤلاء قومنا) يعني أهل بلدهم (اتخذوا من دونه) أي من دون الله (آلهة) يعني الأصنام يعبدونها (لولا) أي هلا (يأتون عليهم) أي على عبادتهم (بسلطان بين) بحجة واضحة......

ثم قال بعضهم لبعض (وإذ اعتزلتموهم) يعني قومكم (وما يعبدون إلا الله). قرأ ابن مسعود (وما يعبدون من دون الله) وأما القراءة المعروفة فمعناها أنهم كانوا يعبدون الله ويعبدون معه الأوثان، يقول إذ اعتزلتموهم وجميع ما يعبدون إلا الله فإنكم لم تعتزلوا ﴿ فأووا إلى الكهف ﴾ فالجأوا إليه.ا.هـ.

قال ابن كثير في البداية والنهاية:

قال كثير من المفسرين والمؤرخين وغيرهم كانوا في زمن ملك يقال له دقيانوس وكانوا من أبناء الأكابر، وقيل من أبناء الملوك، واتفق اجتماعهم في يوم عيد لقومهم فرأوا ما يتعاطاه قومهم من السجود للأصنام والتعظيم للأوثان، فنظروا بعين البصيرة، وكشف الله عن قلوبهم حجاب الغفلة وألهمهم رشدهم، فعلموا أن قومهم ليسوا على شيء، فخرجوا عن دينهم وانتموا إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ويقال إن كل واحد منهم لما أوقع الله في نفسه ما هداه إليه من التوحيد انحاز عن الناس واتفق اجتماع هؤلاء الفتية في مكان واحد، كما صح في البخاري (الأرواح جنودة مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف) فكل منهم سأل الآخر عن أمره وعن شأنه فأخبره ما هو عليه، واتفقوا على الانحياز عن قومهم والتبري منهم والخروج من بين أظهرهم والفرار بدينهم منهم، وهو المشروع حال الفتن وظهور الشرور.ا.هـ.

موقف زيد بن عمرو بن نفيل من قومه:

قال محمد بن إسحاق في السيرة: وقد كان نفر من قريش: زيد بن عمرو بن نفيل، وورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى، وعثمان بن الحويرث بن أسد بن عبد العزى، وعبيد الله بن جحش بن رئاب،..... حضروا قريشا عند وثن لهم كانوا يذبحون عنده لعيد من أعيادهم، فلما اجتمعوا خلا بعض أولئك النفر إلى بعض، وقالوا تصادقوا ولْيكتم بعضكم على بعض، فقال قائلهم: تعلمون والله ما قومكم على شيء، لقد أخطئوا دين إبراهيم عليه السلام وخالفوه، ما وثنٌ يُعبد لا يضر ولا ينفع، فابتغوا لأنفسكم، فخرجوا يطلبون ويسيرون في الأرض يلتمسون أهل الكتاب من اليهود والنصارى والملل كلها الحنيفية دين إبراهيم عليه السلام، فأما ورقة بن نوفل فتنصَّر فاستحكم في النصرانية واتبع الكتب من أهلها حتى علم علماً كثيراً من أهل الكتاب، فلم يكن فيهم أعدل أمراً ولا أعدل شأنا من زيد بن عمرو بن نفيل، اعتزل الأوثان وفارق الأديان من اليهود والنصارى والملل كلها إلا دين إبراهيم، يوحد الله عز وجل ويخلع مَنْ دونه، ولا يأكل ذبائح قومه، باداهم بالفراق لما هم فيه.

قال ابن إسحاق حدثني هشام ابن عروة عن أبيه عن أسماء بنت أبي بكر قالت: لقد رأيت زيد بن عمرو بن نفيل مسنداً ظهره إلى الكعبة، يقول: يا معشر قريش والذي نفس زيد بيده ما أصبح منكم أحد على دين إبراهيم غيري، ثم يقول: اللهم لو أني أعلم أحب الوجوه إليك عبدتك به ولكني لا أعلمه ثم يسجد على راحته.ا.هـ.

قصة سلمان الفارسي رضي الله عنه:

وهذه القصة في مسند الإمام أحمد كاملة عن ابن عباس رضي الله عنه.

حدثنا عبد اللَهُ حدثني أبي ثنا يَعْقُوبُ ثنا أبي عَنِ بن إِسْحَاقَ حدثني عَاصِمُ بن عُمَرَ بن قَتَادَةَ الأنصاري عن مَحْمُودِ بن لَبِيدٍ عن عبد اللَهِ بن عَبَّاسٍ قال حدثني سَلْمَانُ الفارسي حَدِيثَهُ من فيه قال كنت رَجُلاً فَارِسِيًّا من أَهْلِ أَصْبَهَانَ من أَهْلِ قَرْيَةٍ منها يُقَالُ لها جَيٌّ وكان أبي دِهْقَانَ قَرْيَتِهِ وَكُنْتُ أَحَبَّ خَلْقِ اللَّهِ إليه فلم يَزَلْ بِهِ حُبُّهُ إياي حتى حبسني في بَيْتِهِ أي مُلاَزِمَ النَّارِ كما تُحْبَسُ الْجَارِيَةُ وَأَجْهَدْتُ في الْمَجُوسِيَّةِ حتى كنت قَطَنَ النَّارِ الذي يُوقِدُهَا لاَ يَتْرُكُهَا تَخْبُو سَاعَةً قال وَكَانَتْ لأبي ضَيْعَةٌ عَظِيمَةٌ قال فَشُغِلَ في بُنْيَانٍ له يَوْماً فقال لي يا بني إني قد شُغِلْتُ في بُنْيَانٍ هذا الْيَوْمَ عن ضيعتي فَاذْهَبْ فَاطَّلِعْهَا وأمرني فيها بِبَعْضِ ما يُرِيدُ فَخَرَجْتُ أُرِيدُ ضَيْعَتَهُ فَمَرَرْتُ بِكَنِيسَةٍ من كَنَائِسِ النَّصَارَى فَسَمِعْتُ أَصْوَاتَهُمْ فيها وَهُمْ يُصَلُّونَ وَكُنْتُ لاَ أَدْرِي ما أَمْرُ الناس لِحَبْسِ أبي إياي في بَيْتِهِ فلما مَرَرْتُ بِهِمْ وَسَمِعْتُ أَصْوَاتَهُمْ دَخَلْتُ عليهم انظر ما يَصْنَعُونَ قال فلما رَأَيْتُهُمْ أعجبني صَلاَتُهُمْ وَرَغِبْتُ في أَمْرِهِمْ وَقُلْتُ هذا والله خَيْرٌ مِنَ الدِّينِ الذي نَحْنُ عليه فَوَاللَّهِ ما تَرَكْتُهُمْ حتى غَرَبَتِ الشَّمْسُ وَتَرَكْتُ ضَيْعَةَ أبي ولم آتِهَا فقلت لهم أَيْنَ أَصْلُ هذا الدِّينِ قالوا بِالشَّامِ قال ثُمَّ رَجَعْتُ إلى أبي وقد بَعَثَ في طلبي وَشَغَلْتُهُ عن عَمَلِهِ كُلِّهِ قال فلما جِئْتُهُ قال أي بني أَيْنَ كُنْتَ أَلَمْ أَكُنْ عَهِدْتُ إِلَيْكَ ما عَهِدْتُ قال قلت يا أَبَتِ مَرَرْتُ بِنَاسٍ يُصَلُّونَ في كَنِيسَةٍ لهم فأعجبني ما رأيت من دِينِهِمْ فَوَاللَّهِ ما زِلْتُ عِنْدَهُمْ حتى غَرَبَتِ الشَّمْسُ قال أي بني ليس في ذلك الدِّينِ خَيْرٌ دَيْنُكَ وَدِينُ آبَائِكَ خَيْرٌ منه قال قلت كَلاَّ والله انه خَيْرٌ من دِينِنَا قال فخافني

فَجَعَلَ في رجلي قَيْداً ثُمَّ حبسني في بَيْتِهِ قال وَبَعَثْتُ إلى النَّصَارَى فقلت لهم إذا قَدِمَ عَلَيْكُمْ رَكْبٌ مِنَ الشَّامِ تُجَّارٌ مِنَ النَّصَارَى فأخبروني بِهِمْ قال فقَدِمَ عليهم رَكْبٌ مِنَ الشَّامِ تُجَّارٌ مِنَ النَّصَارَى قال فأخبروني بِهِمْ قال فقلت لهم إذا قَضَوْا حَوَائِجَهُمْ وَأَرَادُوا الرَّجْعَةَ إلى بِلاَدِهِمْ فآذنوني بِهِمْ قال فلما أَرَادُوا الرَّجْعَةَ إلى بِلاَدِهِمْ أخبروني بِهِمْ فَأَلْقَيْتُ الْحَدِيدَ من رجلي ثُمَّ خَرَجْتُ مَعَهُمْ حتى قَدِمْتُ الشَّامَ فلما قَدِمْتُهَا قلت من أَفْضَلُ أَهْلِ هذا الدِّينِ قالوا الأُسْقُفُّ في الكَنِيسَةِ قال فَجِئْتُهُ فقلت إني قد رَغِبْتُ في هذا الدِّينِ وَأَحْبَبْتُ أن أَكُونَ مَعَكَ أَخْدُمُكَ في كَنِيسَتِكَ وَأَتَعَلَّمُ مِنْكَ وَأُصَلِّى مَعَكَ قال فَادْخُلْ فَدَخَلْتُ معه قال فَكَانَ رَجُلَ سَوْءٍ يَأْمُرُهُمْ بِالصَّدَقَةِ وَيُرَغِّبُهُمْ فيها فإذا جَمَعُوا إليه منها أَشْيَاءَ اكْتَنَزَهُ لِنَفْسِهِ ولم يُعْطِهِ الْمَسَاكِينَ حتى جَمَعَ سَبْعَ قِلاَلٍ من ذَهَبٍ وَوَرِقٍ قال وَأَبْغَضْتُهُ بُغْضاً شَدِيدًا لِمَا رَأَيْتُهُ يَصْنَعُ ثُمَّ مَاتَ فَاجْتَمَعَتْ إليه النَّصَارَى لِيَدْفِنُوهُ فقلت لهم أن هذا كان رَجُلَ سَوْءٍ يَأْمُرُكُمْ بِالصَّدَقَةِ وَيُرَغِّبُكُمْ فيها فإذا جِئْتُمُوهُ بها اكْتَنَزَهَا لِنَفْسِهِ ولم يُعْطِ الْمَسَاكِينَ منها شَيْئاً قالوا وما عِلْمُكَ بِذَلِكَ قال قلت أنا أَدُلُّكُمْ على كَنْزِهِ قالوا فَدُلَّنَا عليه قال فاريتهم مَوْضِعَهُ قال فَاسْتَخْرَجُوا منه سَبْعَ قِلاَلٍ مَمْلُوءَةٍ ذَهَباً وَوَرِقاً قال فلما رَأَوْهَا قالوا والله لاَ نَدْفِنُهُ أَبَداً فَصَلَبُوهُ ثُمَّ رَجَمُوهُ بِالْحِجَارَةِ ثُمَّ جاؤوا بِرَجُلٍ آخَرَ فَجَعَلُوهُ بِمَكَانِهِ قال يقول سَلْمَانُ فما رأيت رَجُلاً لاَ يصلي الْخَمْسَ أَرَى أَنَّهُ أَفْضَلُ منه أَزْهَدُ في الدُّنْيَا وَلاَ أَرْغَبُ في الآخِرَةِ وَلاَ آداب لَيْلاً وَنَهَاراً منه قال فَأَحْبَبْتُهُ حُبًّا لم أُحِبَّهُ من قَبْلَهُ وَأَقَمْتُ معه زَمَاناً ثُمَّ حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ فقلت له يا فُلاَنُ إني كنت مَعَكَ وَأَحْبَبْتُكَ حُبًّا لم أُحِبَّهُ من قَبْلَكَ وقد حَضَرَكَ ما تَرَى من أَمْرِ اللَّهِ فَإِلَى من تُوصِى بي وما تأمرني قال أي بني والله ما أَعْلَمُ أَحَداً الْيَوْمَ على ما كنت عليه لقد هَلَكَ الناس وَبَدَّلُوا وَتَرَكُوا أَكْثَرَ ما كَانُوا عليه إلا رَجُلاً بِالْمُوصِلِ وهو فُلاَنٌ فَهُوَ على ما كنت عليه فَالْحَقْ بِهِ قال فلما مَاتَ وَغَيَّبَ لَحِقْتُ بِصَاحِبِ الْمُوصِلِ فقلت له يا فُلاَنُ إن فُلاَناً أوصاني عِنْدَ مَوْتِهِ إن الحق بِكَ وأخبرني انك على أَمْرِهِ قال فقال لي أَقِمْ عندي فَأَقَمْتُ عِنْدَهُ فَوَجَدْتُهُ خَيْرَ رَجُلٍ على أَمْرِ صَاحِبِهِ فلم يَلْبَثْ أن مَاتَ فلما حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ قلت له يا فُلاَنُ إن فُلاَناً أَوْصَى بي إِلَيْكَ وأمرني بِاللُّحُوقِ بِكَ وقد حَضَرَكَ مِنَ اللَّهِ عز وجل ما تَرَى فَإِلَى من تُوصِى بي وما تأمرني قال أي بني والله ما أَعْلَمُ رَجُلاً على مِثْلِ ما كنا عليه إلا رَجُلاً بِنَصِيبِينَ وهو فُلاَنٌ فَالْحَقْ بِهِ قال فلما مَاتَ وَغَيَّبَ لَحِقْتُ بِصَاحِبِ نَصِيبِينَ فَجِئْتُهُ فَأَخْبَرْتُهُ بخبري وما أمرني بِهِ صاحبي قال فَأَقِمْ عندي فَأَقَمْتُ عِنْدَهُ فَوَجَدْتُهُ على أَمْرِ صَاحِبَيْهِ فَأَقَمْتُ مع خَيْرِ رَجُلٍ فَوَاللَّهِ ما لَبِثَ أن نَزَلَ بِهِ الْمَوْتُ فلما حَضَرَ قلت له يا فُلاَنُ إن فُلاَناً كان أَوْصَى بي إلى فُلاَنٍ ثُمَّ أَوْصَى بي فُلاَنٌ إِلَيْكَ فَإِلَى من تُوصِى بي وما تأمرني قال أي بني والله ما نَعْلَمُ أَحَداً بَقِيَ على أَمْرِنَا آمُرُكَ أن تَأْتِيَهُ إلا رَجُلاً بِعَمُّورِيَّةَ فإنه بِمِثْلِ ما نَحْنُ عليه فان أَحْبَبْتَ فَأْتِهِ قال فإنه على أَمْرِنَا قال فلما مَاتَ وَغَيَّبَ لَحِقْتُ بِصَاحِبِ عَمُّورِيَّةَ وَأَخْبَرْتُهُ خبر فقال أَقِمْ عندي فَأَقَمْتُ مع رَجُلٍ على هَدْيِ أَصْحَابِهِ وَأَمْرِهِمْ قال وَاكْتَسَبْتُ حتى كان لي بَقَرَاتٌ وَغُنَيْمَةٌ قال ثُمَّ نَزَلَ بِهِ أَمْرُ اللَّهِ فلما حَضَرَ قلت له يا فُلاَنُ إني كنت مع فُلاَنٍ فَأَوْصَى بي فُلاَنٌ إلى فُلاَنٍ وَأَوْصَى بي فُلاَنٌ إلى فُلاَنٍ ثُمَّ أَوْصَى بي فُلاَنٌ إِلَيْكَ فَإِلَى من تُوصِي بي وما تأمرني قال أي بني والله ما أَعْلَمُهُ أَصْبَحَ على ما كنا عليه أَحَدٌ مِنَ الناس آمُرُكَ أن تَأْتِيَهُ وَلَكِنَّهُ قد أَظَلَّكَ زَمَانُ نبي

هو مَبْعُوثٌ بِدِينِ إبراهيم يَخْرُجُ بِأَرْضِ الْعَرَبِ مُهَاجِراً إلى أَرْضٍ بين حَرَّتَيْنِ بَيْنَهُمَا نَخْلٌ بِهِ عَلاَمَاتٌ لاَ تَخْفَى يَأْكُلُ الْهَدِيَّةَ وَلاَ يَأْكُلُ الصَّدَقَةَ بين كَتِفَيْهِ خَاتَمُ النُّبُوَّةِ فإن اسْتَطَعْتَ أن تَلْحَقَ بِتِلْكَ الْبِلاَدِ فَافْعَلْ قال ثُمَّ مَاتَ وَغَيَّبَ فَمَكَثْتُ بِعَمُّورِيَّةَ ما شَاءَ الله أن أَمْكُثَ ثُمَّ مَرَّ بي نَفَرٌ من كَلْبٍ تُجَّاراً فقلت لهم تحملوني إلى أَرْضِ الْعَرَبِ وَأُعْطِيكُمْ بقراتي هذه وغنيمتي هذه قالوا نعم فأعطيتموها وحملوني حتى إذا قَدِمُوا بي وادي الْقُرَى ظلموني فباعوني من رَجُلٍ من يَهُودَ عَبْداً فَكُنْتُ عِنْدَهُ وَرَأَيْتُ النَّخْلَ وَرَجَوْتُ أَنْ تَكُونَ الْبَلَدَ الذي وَصَفَ لي صاحبي ولم يَحِقْ لي في نفسي فَبَيْنَمَا أنا عِنْدَهُ قَدِمَ عليه بنَ عمٍّ له مِنَ الْمَدِينَةِ من بني قُرَيْظَةَ فابتاعني منه فاحتملني إلى الْمَدِينَةِ فَوَاللَّهِ ما هو إلا أن رَأَيْتُهَا فَعَرَفْتُهَا بِصِفَةِ صاحبي فَأَقَمْتُ بها وَبَعَثَ الله رَسُولَهُ فَأَقَامَ بِمَكَّةَ ما أَقَامَ لاَ أَسْمَعُ له بِذِكْرٍ مع ما أنا فيه من شُغْلِ الرِّقِّ ثُمَّ هَاجَرَ إلى الْمَدِينَةِ فَوَاللَّهِ انى لفي رَأْسِ عِذْقٍ لسيدي أَعْمَلُ فيه بَعْضَ الْعَمَلِ وسيدي جَالِسٌ إِذْ أَقْبَلَ بن عَمٍّ له حتى وَقَفَ عليه فقال فُلاَنٌ قَاتَلَ الله بني قَيْلَةَ والله إنهم الآنَ لَمُجْتَمِعُونَ بِقُبَاءَ على رَجُلٍ قَدِمَ عليهم من مَكَّةَ الْيَوْمَ يَزْعُمُونَ انه نبي قال فلما سَمِعْتُهَا أخذتني الْعُرَوَاءُ حتى ظَنَنْتُ سَأَسْقُطُ على سيدي قال وَنَزَلْتُ عَنِ النَّخْلَةِ فَجَعَلْتُ أَقُولُ لاِبْنِ عَمِّهِ ذلك مَاذَا تَقُولُ مَاذَا تَقُولُ قال فَغَضِبَ سيدي فلكمني لَكْمَةً شَدِيدَةً ثُمَّ قال مالك وَلِهَذَا أَقْبِلْ على عَمَلِكَ قال قلت لاَ شيء إنما أَرَدْتُ أَنْ اسْتَثْبِتَ عَمَّا قال وقد كان عندي شيء قد جَمَعْتُهُ فلما أَمْسَيْتُ أَخَذْتُهُ ثُمَّ ذَهَبْتُ بِهِ إلى رسول اللَهِ صلى الله عليه وسلم وهو بِقُبَاءَ فَدَخَلْتُ عليه فقلت له انه قد بلغني انك رَجُلٌ صَالِحٌ وَمَعَكَ أَصْحَابٌ لك غُرَبَاءُ ذو وحاجة وَهَذَا شيء كان عندي لِلصَّدَقَةِ فَرَأَيْتُكُمْ أَحَقَّ بِهِ من غَيْرِكُمْ قال فَقَرَّبْتُهُ إليه فقال رسول اللَّهِ صلى الله عليه وسلم لأَصْحَابِهِ كُلُوا وامسك يَدَهُ فلم يَأْكُلْ قال فقلت في نفسي هذه وَاحِدَةٌ ثُمَّ انْصَرَفْتُ عنه فَجَمَعْتُ شَيْئاً وَتَحَوَّلَ رسول اللَهِ صلى الله عليه وسلم إلى الْمَدِينَةِ ثُمَّ جِئْتُ بِهِ فقلت إني رَأَيْتُكَ لاَ تَأْكُلُ الصَّدَقَةَ وَهَذِهِ هَدِيَّةٌ أَكْرَمْتُكَ بها قال فَأَكَلَ رسول اللَهِ صلى الله عليه وسلم منها وَأَمَرَ أَصْحَابَهُ فَأَكَلُوا معه قال فقلت في نفسي هَاتَانِ اثْنَتَانِ ثُمَّ جِئْتُ رَسُولَ اللَهِ صلى الله عليه وسلم وهو بِبَقِيعِ الْغَرْقَدِ قال وقد تَبِعَ جِنَازَةً من أَصْحَابِهِ عليه شَمْلَتَانِ له وهو جَالِسٌ في أَصْحَابِهِ فَسَلَّمْتُ عليه ثُمَّ اسْتَدَرْتُ أَنْظُرُ إلى ظَهْرِهِ هل أَرَى الْخَاتَمَ الذي وَصَفَ لي صاحبي فلما رآني رسول اللَّهِ صلى الله عليه وسلم اسْتَدَرْتُهُ عَرَفَ أني استثبت في شيء ووصف لي قال فَأَلْقَى رداء عن ظَهْرِهِ فَنَظَرْتُ إلى الْخَاتَمِ فعَرَفْتُهُ فَانْكَبَبْتُ عليه اقبله وَأَبْكِي فقال لي رسول اللَّهِ صلى الله عليه وسلم تَحَوَّلْ فَتَحَوَّلْتُ فَقَصَصْتُ عليه حديثي كما حَدَّثْتُكَ يا بن عَبَّاسٍ قال فَأَعْجَبَ رَسُولَ اللَهِ صلى الله عليه وسلم أن يَسْمَعَ ذلك أَصْحَابُهُ.....

وفيها من العبر شيء كثير، أعظمها حرص سلمان رضي الله عنه على معرفة الدين الحق وتعلمه والعمل به حتى صار من آل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أن كان يعبد النار، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

والشاهد من هذه القصة في موضوعنا هذا هو:

- قول أسقف النصارى بالشام لسلمان عندما حضرته الوفاة: قال أي بني، والله ما أَعْلَمُ أَحَداً الْيَوْمَ على ما كنت عليه لقد هَلَكَ الناس وَبَدَّلُوا وَتَرَكُوا أَكْثَرَ ما كَانُوا عليه إلا رَجُلاً بِالْمُوصِلِ وهو فُلاَنٌ فَهُوَ على ما كنت عليه فَالْحَقْ بِهِ.
- وكذلك قول صاحب الموصل: والله ما أَعْلَمُ رَجُلاً على مِثْلِ ما كنا عليه إلا رَجُلاً بِنَصِيبِينَ وهو فُلاَنٌ فَالْحَقْ بِهِ.
- وقول الرجل الذي بنصيبين: والله ما نَعْلَمُ أَحَداً بَقِيَ على أَمْرِنَا آمُرُكَ أن تَأْتِيَهُ إلا رَجُلاً بِعَمُّورِيَّةَ فإنه بِمِثْلِ ما نَحْنُ عليه فإن أَحْبَبْتَ فَأْتِهِ.
- وقول صاحب عمورية: والله ما أَعْلَمُهُ أَصْبَحَ على ما كنا عليه أَحَدٌ مِنَ الناس آمُرُكَ أن تَأْتِيَهُ وَلَكِنَّهُ قد أَظَلَّكَ زَمَانُ نبي هو مَبْعُوثٌ بِدِينِ إبراهيم يَخْرُجُ بِأَرْضِ الْعَرَبِ.

فتأمل ما قاله الأساقفة وانظر إلى غُربة من تمسك بالدين الحق عند خروج الناس عنه، وتأمل جيدا في معرفتهم لحقيقة ما عليه الناس في ذلك الوقت، مع أن القوم كانوا يدّعون النصرانية.

ولولا معرفة الأساقفة لبعضهم وما يدينون به لما استطاع أحدهم أن يعرف ما عليه أخاه؛ لأن الظاهر من حال الناس في ذلك الوقت الكفر والضلال.

ولما بعث الله رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم بالإسلام كان الناس في جاهلية جهلاء، فكان الداخل في هذا الدين يدرك جيدا ما عليه قومه من الشرك والضلال وكذلك ما عليه آباؤهم وأجدادهم، بل إن الكفار الذين لم يقبلوا هذا الدين عرفوا ما يريده منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم لما دعاهم لقول لا إله إلا الله، وأيقنوا أنه جاء بدين جديد يخالف ما وجدوا عليه آباءهم وأجدادهم، وعلموا أن دخولهم في هذا الدين يعني الحكم على دين الآباء والأجداد بالبطلان وأنهم كانوا على ضلال، ولهذا قالوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لقد سفَّه أحلامنا وعاب ديننا وسب آباءنا، وقال أبو جهل وأمية بن خلف لأبي طالب عندما دعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم لقول لا إله إلا الله وقد حضرته الوفاة: أترغب عن ملة عبد المطلب. وذلك لأنهم كانوا يعلمون أن من قال هذه الكلمة وأقرَّ بها فقد حكم على كل ملة سوى الإسلام بالبطلان، وأن كل من دان بغير الإسلام فهم مشرك ضال.

فمن شهد أن لا إله إلا الله في ذلك الوقت، فإنه يحكم على قومه بالشرك والضلال، ولا يحكم بالإسلام إلا لمن دان الدين الذي جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وفي هذا الزمان أيضا لا يصعب على من هداه الله لمعرفة الدين الحق أن يدرك جيدا ما عليه قومه من الضلال والجهل والشرك؛ ولا يلتبس عليه أن قومه يتلفظون بالشهادتين ويزعمون أنهم على الإسلام، فقد كان هو أيضا يتلفظ بالشهادتين ويصلي ويصوم ويقرأ القرآن ويظن أنه على الحق، ولما هداه الله للإسلام أيقن أنه كان على ضلال، وأنه لم يكن يدين بالإسلام الذي بعث الله به رسوله صلى الله عليه وسلم، ولم يأتِ بأصل الدين الذي

يكون به المرء مسلماً، فلم يكن كافرا بالطاغوت مؤمنا بالله وحده، ولم يكن متبرئا من الشرك وأهله، وليس له من لا إله إلا الله إلا مجرد التلفظ بحروفها دون معرفةٍ لمعناها ولا عمل بمقتضاها، بل إنه كان مع تلفظه بلا إله إلا الله وادعائه الإيمان بها يجعل لغير الله نصيبا من العبادة، ويؤمن بالطاغوت، ولا يكفِّر المشركين.. نعم كان يقول لا إله إلا الله ولكنه لم يكن محققا للتوحيد بقلبه ولسانه وعمله. فكان كافرا جاهلا.

كان هذا حاله قبل أن يهديه الله لمعرفة الحق واتباعه.. وهذا هوا حال قومه الذين يعيش بينهم فقد كان فردا منهم، وكان يَعُدُّ نفسه وأهله وأقاربه وعشيرته وقومه من المسلمين، ويواليهم على ذلك...وهو حال أمته أيضا التي كان ينتمي إليها ويفتخر بها ويحسب أنها أمة الإسلام.

فلما هداه الله للإسلام عرف أن الدين الذي كان يدين به ليس هو الإسلام، بل إن هذا الدين جديد عليه لم يكن يعلمه من قبل، ولم يعلِّمه إياه والده ولا شيخه ولا أستاذه، فهم أيضا لا يعرفون هذا الدين ولا يدينون به، فالمساجد والمدارس لا تعلِّم هذا الدين ولا تعرفه، وجميع مراحل التعليم لا تتكلم عنه، فهو إذاً دين غريب لا يعرفه أكثر الناس.

والسؤال هنا: هل يمكن أن يشكل على هذا المسلم ما يرى من قومه من ادعاء الإسلام، والتلفظ بالشهادتين، وأداء الصلاة والصوم والحج، وقراءتهم القرآن، وغير ذلك من شعائر الإسلام، فيقول مثلاً: كيف أحكم عليهم بالضلال والكفر وهم ينتسبون للإسلام ويؤدون شعائره؟!

والجواب: أن هذا الرجل الذي هداه الله للإسلام يعرف جيدا أن خلافه مع قومه ليس في قول لا إله إلا الله، ولا في الصلاة والصوم والحج وقراءة القرآن، فهو أيضاً كان يفعل ذلك أيام جاهليته قبل أن يدخل الإسلام، وعندما عرف الحق أقر بأنه كان على غير الإسلام، وما يرى من حال قومه الآن هو عين الحال التي كان عليها في ضلاله، فكيف يلتبس عليه حالهم وهو لا يرى منهم تغيُّراً يدل على إسلامهم وقد كان فردا منهم، فالخلاف بينه وبين قومه هو خلاف في أصل الدين وحقيقة لا إله إلا الله التي لا يكون المرء مسلما إلا إذا أتى بها، وهو على يقين أن خلافه مع قومه كالخلاف الذي حصل بين الرسل وأقوامهم المشركين، وهو خلاف في إخلاص العبادة لله والبراءة من الشرك وأهله، وقد علم أن الناس ليس عندهم من هذا الأصل إلا مجرد النطق بكلمة التوحيد، وحالهم معها كمن يردد كلاما لا يفقه معناه، فما يقوله بلسانه يكذبه بفعاله.

والمسلم اليوم لا يُقَيِّمُ قومه بمجرد قول لا إله إلا الله؛ لأنه يعلم جيدا أن الذي يميز المسلمين اليوم عن غيرهم ليس هو النطق بالشهادتين، بل هو الإيمان والعمل بما دلتا عليه، أي الإيمان بالله وعبادته وحده والكفر بما يعبد من دونه والبراءة من الكافرين والإيمان بالرسول وبما جاء به، فالمسلم من أخلص عبادته لله وحده، وترك الشرك وأبغضه وأنكره، ووالى لله وحده، وتبرأ ممن أشرك به وكفَّرهم وأبغضهم وإن كانوا أقاربه أو عشيرته أو قومه، وليس المسلم من قال لا إله إلا الله دون معرفة لمعناها ولا عمل والتزام بما دلت عليه، فجعل شيئا من العبادة لغير الله، أو والى المشركين أعداء الله.

ومن عرف الحق عرف أهله وأتباعه، ومن عرف الباطل عرف أهله وأتباعه، ولا تلتبس مثل هذه الأمور إلا على من انطمست بصيرته، وانطفأ نور الإيمان من قلبه، وجهل الحد الفاصل بين الكفار والمسلمين، وفَقَدَ الميزان الحق الذي يعرف به أحوال الناس من حوله.

ولو أن نصرانيا أو بوذيا أو يهوديا دخل الإسلام لاعتقد من أول وهلة أن قومه كفار، وأن المسلمين هم الذين يدينون بهذا الدين الحق ويتبرؤون مما سواه.

وهكذا فإن كل من عرف الإسلام الحق عرف أن مخالفيه على ضلال وباطل دون شك أو ارتياب، وليس التفريق بين المسلمين والكافرين خاصا بالعلماء أو محصورا عند طائفة معينة من الناس بل هو عقيدة لكل من أراد أن يكون مسلما.

الفصل الرابع

الناس قسمان إما مهتدٍ مسلم موحد
أو ضال كافر مشرك

الأحكام في الدنيا على الظاهر:

الحكم على الناس في هذه الدنيا وتمييز المسلم من الكافر على حسب الظاهر.

فمن كان ظاهره الإسلام حُكم له به.. ومن كان ظاهره الكفر حكم له به.. سواء كان فردا أو جماعة أو شعبا أو أمة.

قال النووي: وقوله صلى الله عليه وسلم (.... أفلا شققت عن قلبه..) فيه دليل للقاعدة المعروفة في الفقه والأصول أن الأحكام يعمل فيها بالظواهر والله يتولى السرائر.ا.هـ.

وقال ابن حجر في فتح الباري: وكلهم أجمعوا على أن أحكام الدنيا على الظاهر والله يتولى السرائر.ا.هـ.

وَكَذَا قال ابن عبد الْبَرِّ في التَّمْهِيدِ: أَجْمَعُوا أَنَّ أَحْكَامَ الدُّنْيَا على الظَّاهِرِ وَأَنَّ أَمْرَ السَّرَائِرِ إلَى اللَّهِ.ا.هـ.

قال الشاطبي في الموافقات: إن أصل الحكم بالظاهر مقطوع به في الأحكام خصوصاً وبالنسبة إلى الاعتقاد في الغير عموماً، أيضا فإن سيد البشر صلى الله عليه وسلم مع إعلامه بالوحي يجرى الأمور على ظواهرها في المنافقين وغيرهم، وإن علم بواطن أحوالهم، ولم يكن ذلك بمخرجه عن جريان الظواهر على ما جرت عليه.ا.هـ.

والناس في هذه الدنيا فريقان، فريق هداه الله ووفقه لاتباع دينه وأخرجه من الظلمات إلى النور فهو مسلم موحد عابد لله وحده، وفريق أضله الله فهو يتخبط في ظلمات الجهل والكفر فهو كافر ضال مشرك عابد لغير الله.

قال تعالى: (وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ) (آل عمران:٨٥).

فكل ملة تخالف ملة الإسلام فهي الكفر (كاليهودية والنصرانية والعلمانية والديموقراطية والبوذية والقبورية الوثنية، وغيرها)، وأهلها كفار.

قال تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ) (الأنعام: من الآية١٥٩).

وقال تعالى: (وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ * مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ) (الروم:٣٢:٣١).

وقد ذكر الله عز وجل في كتابه في أكثر من موضع انقسام الناس مع هذا الدين إلى قسمين:

قال تعالى: (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ) (النحل: من الآية٣٦).

قال ابن جرير: (فمنهم من هدى الله) يقول فممن بعثنا فيهم رسلنا من هدى الله فوفقه لتصديق رسله والقبول منهم والإيمان بالله والعمل بطاعته، ففاز وأفلح ونجا من عذاب الله (ومنهم من حقت عليه الضلالة) يقول وممن بعثنا رسلنا إليه من الأمم آخرون حقت عليهم الضلالة فجاروا عن قصد السبيل فكفروا بالله وكذبوا رسله واتبعوا الطاغوت فأهلكهم الله بعقابه وأنزل عليهم بأسه الذي لا يرد عن القوم المجرمين.ا.هـ.

وهذا دليل على أن كل أمة بعث الله إليها رسولا انقسم أهلها إلى قسمين لا ثالث لهما.

ومن تأمل ما قص الله من قصص رسله وجد الأمر كذلك.

وهناك نقطة مهمة أيضا وهي أن الكفار من الأمم السابقة – وهم الفريق المقابل لفريق الرسول وأتباعه الذين هم حزب الله – يهلكهم الله جميعا ولا يُبقي منهم أحدا ولا يَبقى إلا فريق الموحدين، مما يدل أيضا على أنه ليس هناك فريق وسط بين هؤلاء وهؤلاء.

وقال تعالى: ﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (البقرة:٢٥٧:٢٥٦).

وهذا دليل أيضا على أن الناس قسمان: قسم يتولون الله وحده ويكفرون بما يعبد من دونه، فالله وليهم ليس لهم ولي من دونه، وقسم أولياؤهم الطاغوت.

وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾ (النمل:٤٥).

قال مجاهد: فإذا هم فريقان يختصمون قال مؤمن وكافر.

وقد ذكر الله عز وجل هذه الخصومة في قوله: ﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحاً مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ * قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ (الأعراف:٧٦:٧٥).

وهذا أيضا دليل واضح جدا، ويستفاد منه أيضا أنهم كانوا فريقا واحدا قبل أن يرسل الله إليهم صالحا مجتمعين على الكفر، ثم انشق منهم فريق آخر وهم نبي الله صالح ومن آمن به، ومن لم يؤمن بقي في الفريق الأول، ولا ثالث لهما. وقد نجّى الله صالحا ومن معه وأهلك الآخرين.

وقال تعالى: ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ (البقرة:٢٥٣).

قال أبو الليث السمرقندي في تفسيره: ولكن اختلفوا في الدين فصاروا فريقين.ا.هـ.

وقال تعال: (قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ * فَرِيقاً هَدَى وَفَرِيقاً حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ) (الأعراف:٢٩: ٣٠).

قال ابن جرير: هدى الله منهم فريقا فوفقهم لصالح الأعمال فهم مهتدون، وحق على فريق منهم الضلالة عن الهدى والرشاد باتخاذهم الشيطان من دون الله وليا.ا.هـ.

قال أبو الليث السمرقندي: (ويحسبون أنهم مهتدون) يعني يظنون أنهم على الهدى، قال الزجاج فيه دليل أن من لا يعلم أنه كافر وهو كافر يكون كافرا لأن بعضهم قال لا يكون كافرا وهو لا يعلم وذلك القول باطل لأن الله تعالى قال (ذلك ظن الذين كفروا) وقال (ويحسبون أنهم مهتدون).ا.هـ.

وقال البغوي: فيه دليل على أن الكافر الذي يظن أنه في دينه على الحق والجاحد والمعاند سواء.ا.هـ.

فالملاحظ دائما هو انقسام الناس إلى فريقين لا ثالث لهما مؤمن وكافر.

وقد قال المولى جل وعلا: (هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) (التغابن:٢).

قال ابن حزم في الفصل في الملل والأهواء والنحل: فصح يقينا أنه ليس في الناس ولا في الجن إلا مؤمن أو كافر فمن خرج عن أحدهما دخل في الآخرة.ا.هـ.

وقال أيضا في نفس الكتاب: والإجماع والنصوص قد صح كل ذلك على أنه لا دين إلا الإسلام أو الكفر من خرج من أحدهما دخل في الآخر ولا بد إذ ليس بينهما وسيطة، وكذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "لا يرث المسلم الكافر ولا الكافر المسلم" وهذا حديث قد أطبق جميع الفرق المنتمية إلى الإسلام على صحته وعلى القول به فلم يجعل عليه السلام دينا غير الكفر والإسلام ولم يجعل هاهنا دينا ثالثا أصلا.ا.هـ.

فالناس إما مسلم من أهل ديننا وملتنا يدين بنفس ما ندين به أو كافر على غير ملتنا وديننا، وليس هناك فريق ثالث يكون وسيطا بين المسلمين والكافرين.

فمن خلال ما سبق يتبين أن الناس مع الإسلام ينقسمون إلى قسمين لا ثالث لهما:

القسم الأول هم الذين أخرجهم الله من الظلمات إلى النور وهداهم الله للإيمان بالله والكفر بالطاغوت فعبدوا الله وحده وتبرؤا من الشرك وأهله.

والقسم الآخر أضلهم الله فبقوا على كفرهم وعنادهم وجهلهم.

فالفريق الأول هم المسلمون، وقد يكونون في بعض الأوقات رجلا واحدا فقط، كما حدث مع إبراهيم عليه السلام قال تعالى: (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلَّهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) (النحل:١٢٠).

قال البغوي: قال مجاهد كان مؤمنا وحده والناس كلهم كفار.ا.هـ.

وجاء في كتاب الإحكام لابن حزم:

وقد أسلمت خديجة رضي الله عنها أم المؤمنين وسائر الناس كفار فكانت على الحق وسائر أهل الأرض على ضلال.

ثم أسلم زيد بن حارثة وأبو بكر رضي الله عنهم فكانوا بلا شك هم الجماعة وجميع أهل الأرض على الباطل.

وقد نُبِّيء رسول الله صلى الله عليه وسلم وحده فكان على الحق واحدا وجميع أهل الأرض على الباطل والضلال وقد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أن زيد بن عمر بن نفيل يبعث يوم القيامة أمة وحده، وذلك لأن زيدا آمن بالله تعالى وحده وجميع أهل الأرض على ضلالة.

وقد صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال "إن هذا الدين بدأ غريبا وسيعود غريبا فطوبى للغرباء قيل ومن هم يا رسول الله قال النُّـزَّاع من القبائل". وقال صلى الله عليه وسلم "الناس كإبل مائة لا تجد فيها راحلة".ا.هـ.

والفريق الثاني هم الذين لا يدينون بالإسلام من كافة الملل الأخرى، وهم الأكثرون عدداً في كل الأوقات بعد القرون العشر الأولى من بداية الخليقة.

قال تعالى: (فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ) (الروم: ٣٠).

وقال تعالى: (مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ) (يوسف: ٤٠). وكَوْنُ أكثر الناس لا يعلمون الدين القيم يعني أن أكثرهم ليسوا على الدين القيم.

والجدير بالذكر أن هذا الانقسام إلى مؤمنين وكفار لم يكن في بداية الخليقة بل استمر الناس عشرة قرون مجتمعين على الإسلام، إلى أن بدأ يظهر بينهم الشرك بالله فاختلفوا وتفرقوا وطال بهم الأمد حتى صاروا أمة مجتمعة على الشرك، فأرسل الله إليهم نوحا عليه السلام يدعوهم إلى ترك الشرك وعبادة الله وحده، فمنهم من آمن وهم قليل وأكثرهم بقوا على شركهم وكفرهم، فأهلك الله الكافرين ولم يُبقِ منهم أحدا ونجّا الموحدين.

قال تعالى: (وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ) (يونس: ١٩) وقوله: (كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ) (البقرة: من الآية٢١٣).

ومن العلماء من قال أنهم صاروا أمة واحدة على الكفر بعد أن كانوا أمة واحدة على الإسلام.

قال ابن جرير: عن عكرمة عن بن عباس قال كان بين نوح وآدم عشرة قرون كلهم على شريعة من الحق فاختلفوا فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين.ا.هـ.

هذا حال الناس قديما وحديثا إما مسلم مهتدٍ موحد، أو كافر ضال مشرك، ولا ثالث لهما، ولا واسطة بينهما.

والحد الفاصل بين الفريقين والعَلَمُ المميز بينهما هو كلمة التوحيد معرفتها واعتقادها والإقرار بها والعمل بمقتضاها والبراءة ممن لم يكن من أهلها.

وكل مسلم يعرف الحد الفاصل والفارق بين المسلمين والكافرين وهو الحد الفاصل بين الإسلام والكفر، فمن عرف الإسلام عرف ضده، ومن اشتبه عليه هذا فقد اشتبه عليه ذاك.

ولا بد أن يكون التمييز بين المسلمين والكفار على أرض الواقع لا من الناحية النظرية فقط.

ومن لم يعرف الفرق بين فريق المسلمين وفريق الكافرين على أرض الواقع لا يمكن أن يتم له ولاء ولا براء، وبالتالي لا يتم له إسلام.

قال تعالى: (قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) (يونس:١٠٥:١٠٤).

فتأمل قوله: وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ. وقوله: وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ.

قال القاضي عياض في كتابه الشفا:

ولهذا نكفر من دان بغير ملة المسلمين من الملل، أو وقف فيهم، أو شك، أو صحح مذهبهم، وإن أظهر مع ذلك الإسلام، واعتقده، واعتقد إبطال كل مذهب سواه، فهو كافر بإظهاره ما أظهر من خلاف ذلك.ا.هـ.

وأحوال الناس وأقوالهم وأفعالهم شاهدة عليهم بما يدينون به.

قال تعالى: (مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ) (التوبة:١٧).

فالمشركون في هذه الآية هم أهل مكة، وقد أخبر سبحانه أنهم شاهدون على أنفسهم بالكفر، وهذه الشهادة هي أقوالهم وأفعالهم الظاهرة التي تخبر وتصف حالهم وشركهم.

فالأقوال والأفعال الظاهرة من القوم هو الواقع الظاهر الذي يمكن من خلاله معرفة حالهم ووصفهم بالكفر أو الإسلام.

قال الماوردي في النكت والعيون: (شَاهِدِينَ عَلَى أنفُسِهِم بِالْكُفْرِ) فيه ثلاثة تأويلات:

أحدها: أن فيما يقولونه أو يفعلونه دليل على كفرهم كما يدل عليه إقرارهم، فكأن ذلك منهم هو شهادتهم على أنفسهم ، قاله الحسن.ا.هـ.

وقال البغوي في تفسيره: قال الحسن: لم يقولوا نحن كفار ولكن كلامهم بالكفر شاهد عليهم بالكفر، وقال الضحاك عن ابن عباس شهادتهم على أنفسهم بالكفر سجودهم للأصنام.ا.هـ.

وقال ابن عطية في المحرر الوجيز: وقوله (شاهدين على أنفسهم بالكفر) إشارة إلى حالهم إذ أقوالهم وأفعالهم تقتضي الإقرار بالكفر والتحلي به.ا.هـ.

وقال ابن القيم في مدارج السالكين: فهذه شهادة منهم على أنفسهم بما يفعلون من أعمال الكفر وأقواله فهي شهادة بكفرهم وهم شاهدون على أنفسهم بما شهدت به.ا.هـ.

وقال ابن كثير في تفسيره: وهم شاهدون على أنفسهم بالكفر أي بحالهم وقالهم.ا.هـ.

وعلى هذا فإن الأحوال والأقوال والأفعال الظاهرة تشهد وتدل على كفر القوم أو إسلامهم.

وكل مسلم اليوم في أي بلد من البلدان يمكنه أن يعرف ما يدين به قومه، وليس ذلك بعسير عليه، فما عليه إلا أن ينظر إلى الدين الظاهر في القوم، فإن وجدهم ملتزمين بالإسلام مستسلمين لله وحده لايعبدون إلا الله ولا يشركون به شيئا، ويوالون على الإسلام ويعادون عليه، ويتبرؤون من الكفار والمشركين، فهم على دينه مسلمون موحدون، وإن لم يجدهم على الإسلام، فقومه على خلافه من الدين كفار مشركون، وهذا الدين الظاهر الذي يدين به القوم خير دليل على معرفة كفرهم أو إسلامهم.

ومجرد غياب الدين الحق في واقع قوم ما، أصدق دليل على كفر هؤلاء القوم وخروجهم عن الإسلام.

فأيَّما قوم ظهرت فيهم الوثنية، وتفشى بينهم الشرك، وغابت عنهم معالم التوحيد، وصار المسلم بينهم مضطهد غريب، فلا شك أنهم كفار مشركون.

وأيَّما قوم تركوا العمل بشريعة الله، وكان القانون الوضعي الطاغوتي هو الشرع المتبع فيهم، والدستور المقدس بينهم، به يحكمون، وإليه يتحاكمون، وله يخضعون، وعليه يدافعون، فلا شك في كفرهم وخروجهم عن دين الله الحق.

فمن عرف الدين الحق في أي زمان ومكان لم يصعب عليه معرفة الدين الذي يدين به قومه.

فها هو زيد بن عمرو بن نفيل لما هداه الله عز وجل لدين إبراهيم عليه السلام لم يلتبس عليه حال قومه، بل أيقن أنهم على غير ملة إبراهيم، مع أنهم كانوا ينتسبون إليه، ويعظمون البيت الحرام، ويحجون ويتصدقون.

كما روى البخاري في صحيحه عن أَسْمَاءَ بِنْتِ أبي بَكْرٍ رضي الله عنهما قالت رأيت زَيْدَ بن عَمْرِو بن نُفَيْلٍ قَائِمًا مُسْنِدًا ظَهْرَهُ إلى الْكَعْبَةِ يقول يا مَعَاشِرَ قُرَيْشٍ والله ما مِنْكُمْ على دِينِ إبراهيم غَيْرِي.

فإنه –رحمه الله وغفر له– لما عرف حقيقة دين إبراهيم عَلِمَ أن قومه ليسوا على شيء، وأنهم قد خرجوا عن الإسلام والتوحيد إلى الشرك وعبادة غير الله.

- فهل كان زيد محقا في قوله هذا؟
- وكيف توصل لمعرفة هذه النتيجة التي واجه بها قومه؟
- هل كان ذلك عن طريق الاستقراء الكلي لجميع أفراد قومه ومعرفة ما يدين به كل فرد منهم؟!

لاشك أن الأمر لا يحتاج إلى تتبع واستقراء حال كل فرد من قومه ليعرف ما يدين به القوم، وما هو الظاهر فيهم، بل يكفي للحكم على قومٍ ما بأنهم ليسوا على الإسلام عدم ظهور الإسلام فيهم، كما هو حال قريش عندما قال لهم زيد قولته السابقة.

وإذا كان الحكم على القوم على حسب الدين الظاهر والغالب عليهم، وهذا لا يحتاج إلى بحث وتقصٍّ واستقراء لكل فرد من أفراد المجتمع وما يدين به. فمن عرفنا إسلامه حكمنا له به، ومن لم نعرفه فله حكم قومه حتى يتبين لنا خلافه لهم، ومن لم يلتزم بإجراء الأحكام على الظاهر ورام معرفة حقيقة كل فرد فقد خالف الشرع الحنيف، وركب بدعة شنعاء، وتكبد ما لا طاقة له به.

والمسلم الذي يكتم إيمانه ولا نعرفه يأخذ حكم الكفار على الظاهر لأنه غير متميز عنهم، ولا نكون آثمين ولا مخطئين في ذلك؛ لأن الله لم يكلفنا بغير ما ظهر لنا، وهو عند الله من المسلمين.

ومن عرف دين الله الحق من عامي أو عالم، وتأمل حال قومه، أيقن أنهم بعيدون عن الإسلام كل البعد، وأنهم غاطسون في الشرك و تأليه غير الله، وأنهم لا يعرفون من الإسلام إلا اسمه، وإن كانوا لايزالون ينتسبون للإسلام ويزعمون أنهم بريئون مما سواه.

قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب:

وما أحسن ما قاله واحد من البوادي، لما قدم علينا وسمع شيئاً من الإسلام، قال: أشهد أننا كفار – يعني هو وجميع البوادي –، وأشهد أن المطوع الذي يسمينا إسلاماً أنه كافر.ا.هـ.

ومع هذا فإننا نعتقد أن من عمل بالإسلام ولم يأتِ بما يناقضه فهو المسلم حرام الدم والمال في أي مكان أو زمان كان.

ومن المعلوم أن كلمة الإخلاص لا إله إلا الله هي الفارقة بين الكفر والإسلام، وهي التي تميز بين المسلم والكافر. ولكن هل مجرد قولها باللسان مع عدم اعتقاد معناها والعمل بمدلولها كافٍ في التفريق بين المسلم والكافر؟

لاشك أن المقصود من هذه الكلمة هو توحيد الله عز وجل بما يستحقه من العبادة، سواء كان في الشعائر والنسك، أو الحكم والطاعة، أو الولاء والبراء، ومجرد القول المخالف للعمل والاعتقاد لا فائدة منه، ولا عبرة به، ولا يفيد توحيداً، بل التوحيد نفي وإثبات، وترك واتباع، وقول وعمل: قول القلب واللسان وعمل القلب والجوارح، فمن قال لا إله إلا الله ولم يعمل بما دلت عليه من نفي الشرك والبراءة من أهله وإخلاص العبادة لله لا يعتبر من أهلها، ومن قالها وأظهر ما يناقضها لا يكون مسلما، وهذه الحقيقة لا تخفى على من عرف دين الله.

وأي فرد يعيش في وسط هذه المجتمعات التي يردد أهلها لا إله إلا الله إذا عرف الإسلام الحق وعرف ما تدل عليه هذه الكلمة العظيمة، لا يتردد في وصف هذه المجتمعات بالجاهلية وهؤلاء الأقوام بالكفر والشرك

والضلال، ولا يشك في ذلك؛ لأن هذا الإسلام الذي عرفه غائب عنهم، بل إنه يعتبر الحكم لهم بالإسلام كفرا مبينا وخطأ فاحشاً، وضلالا بعيدا، وجهلا عظيما، وخروجا عن الحقيقة والصواب، وتلبيساً للحق بالباطل.

وهذه الحقيقة التي وصل إليها هي من خلال معرفته بالإسلام الحق والنظر فيما عليه الناس من حوله، فلا يحتاج إلى اجتهاد عالم أو فتوى إمام، بل هي حقيقة يضطر المسلم إليها اضطرارا لا محيد عنه، وهي الوصف المناسب الذي رآه ينطبق على هذه المجتمعات، فغياب الإسلام دليل على غياب أهله، وظهور الشرك والكفر دليل على وجود الكفار والمشركين، فلا يُظهِر الكفر والشرك إلا الكافرون المشركون، كما أن ظهور الإسلام دليل على وجود المسلمين.

وإذا قيل هل تعتقدون كفر أهل الأرض على الإطلاق؟ أم لا؟

نقول: الذي نعتقده وندين به أننا لا نحكم بالإسلام إلا لمن عرفناه يدين به، أي أنه يعبد الله مستسلما له وحده، ولا يشرك به شيئا، ويبرأ مما عليه الناس اليوم من الأديان الباطلة كالوثنية القبورية والعلمانية والديمقراطية وغيرها، ويكفِّر كل من لم يدن بالإسلام قولا وعملا سواء كان عن جهل أو عن علم.

ومن لم نعرف عنه أنه يدين بهذا الدين فهو من الكافرين حتى يثبت لنا إسلامه، وعامة الناس اليوم على غير دين الإسلام.

ونعتقد أنه لا تزال طائفة من أمة محمد صلى الله عليه وسلم على الحق منصورين، لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم، إلى أن تقوم الساعة، كما وردت بذلك الأحاديث الصحيحة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، مع إخباره بأن أمته تتبع سنن الأمم قبلها، كما ثبت ذلك أيضا.

ولا نقول أن كل فرد بعينه قد قامت عليه الحجة واستحق بذلك العذاب في الدنيا والآخرة، وإنْ كنَّا نعتقد أن لله الحجة البالغة وأنه ليس للناس على الله حجة بعد الرسل، وأن الحجة تقوم على الناس ببلوغهم كتاب الله وسماعهم بالرسول صلى الله عليه وسلم وتمكنهم من معرفة ما جاء به، وأن الذين لم تقم عليهم الحجة حكمهم في الدنيا على الظاهر، فمن لم يعبد الله وحده ويخلص له الدين ويبرأ من الشرك وأهله فلا يكون من المسلمين وإن لم تقم عليه الحجة، هذا في أحكام الدنيا وأما في الآخرة فأمره إلى الله.

ومن المعلوم أن وصف الناس بالشرك وتسمية من أشرك بالله مشركاً كافراً ثابت قبل الحجة وبعدها وهو الوصف المناسب لمن أشرك بالله ولم يعبده وحده، قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (البقرة:٦).

وقال عز وجل: ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (التوبة:٦).

وأهل الفترة الذين لا يعبدون الله وحده لا يسمون مسلمين بل مشركين، وهذا مما لا خلاف فيه. والله أعلم.

الفصل الخامس

أحكام الديار

لن نطيل كثيرا في هذا الموضوع بالدخول في أقوال العلماء حول هذه المسألة والتقسيمات الفرعية لأحكام الديار، فما يهمنا هنا هو وصف ديار اليوم التي يسكنها من يدَّعون الإسلام، هل هي ديار كفر أم ديار إسلام؟

ولا شك أن معرفة الجواب على هذا السؤال مرتبط بمعرفة الفرق بين الإسلام والكفر من الناحية الأولى، ومن الناحية الثانية معرفة الوصف المؤثر والمناط المعتبر في تقسيم الديار إلى ديار إسلام وديار كفر.

فالكثير ممن يخطئ في الحكم على الديار اليوم يكون خطؤه نتيجة الجهل بالإسلام وعدم معرفته للفرق بينه وبين الكفر واختلاط الأمر عنده؛ ولهذا تجد من يصف الكفر والجاهلية بالإسلام، كما تجد من يسمي الكفار والمشركين بالمسلمين، ومن ثَمَّ لا يفرق بين ديار الكفر وديار الإسلام.

وقد بينا حقيقة دين الإسلام وأصله الذي لا يتحقق بدونه ولا يقبل النقص والتغيير، فوجوده ظاهرا في واقع فرد أو جماعة أو شعب أو أمة يعني وجود الإسلام وغيابه يعني غياب الإسلام.

والإسلام هو: أن تعبد الله وحده بما شرع على لسان رسوله، وألا تشرك به شيئا، وأن تتبرأ من الكافرين وما يعبدون من دون الله وتَكْفُرَ بهم وتعاديهم وتبغضهم.

فلا تدعو إلا الله، ولا تصلي إلا لله، ولا تذبح إلا لله، ولا تتوكل إلا عليه، ولا تستغيث إلا به، ولا تحتكم إلا إلى شريعته وحكمه، ولا تحرم إلا ما حرمه ولا تحل إلا ما أحله، ولا تتبع إلا ما أنزله، ولا توالي وتعادي إلا فيه، ولا تجاهد إلا في سبيله.

وتتبرأ ممن يدعو غيره، أو يصلي لغيره، أو يذبح لغيره، أو يتوكل على غيره، أو يحتكم إلى غير شريعته، أو يحل ما حرمه أو يحرم ما أحله، أو يتبع غير ما أنزله، أو يوالي ويعادي في غيره، أو يجاهد في غير سبيله ودينه.

وتتبرأ من الطواغيت التي يعبدها المشركون من دون الله من القبور والأحجار والأشجار والعيون والآبار والجن والشياطين والحكام والعلماء والقوانين والتشريعات والرايات والشعارات والأديان الباطلة كالعلمانية والديموقراطية وغيرها.

فمن أتى بهذا الأصل قولا وعملا ولم يأت بما يناقضه فهو المسلم، ومن لم يأت به فهو كافر مشرك ولو كان جاهلا يدعي الإسلام ويحسب أنه من المهتدين، وهذا في حق الفرد والجماعة.

فمن عرف هذا الدين وحققه عرف أهله وعرف المخالفين له، وقد أشرنا سابقا إلى نقطة مهمة ألا وهي أن المسلم لا يجهل الفرق بين الكفر والإسلام كما لا يجهل الفرق بين الكفار والمسلمين، وبالتالي لا يحتاج إلى من يعرِّفه ويبين له أحكام الناس من حوله، ولا يمكن أن يلتبس عليه أمرهم بحيث لا يستطيع أن يميز أمسلمون

هم أم كفار مشركون، فمتى حصل هذا الالتباس فإنما هو بسبب الجهل بالإسلام وأصله الذي يفرق بين المسلمين والكفار.

وما يتعلق بأحكام الديار – وهو عنوان هذا الفصل – أكثر ما يهمنا منه في هذا الزمان نوع واحد فقط؛ لأن جميع ديار العالم اليوم على نمط واحد، فإذا نظرنا إلى ما يدين به غالبية أهلها وجدناهم كفارا مشركين بالله، وإذا نظرنا للأحكام السائدة فيها والسلطان الظاهر عليها وجدناها أحكام الجاهلية وسلطان الكفر، وإذا نظرنا لحال الإسلام والمسلمين فيها لم نجد ظهورا للإسلام فيها ولا سلطانا ولا أمنا للمسلمين بها، بل المسلمون قلة مستضعفة لا شوكة لهم ولا منعة.

فهل توصف مثل هذه الديار بالإسلام أم بالكفر؟

لا نجد أي مناط معتبر أو وصف مؤثر تستحق به أحد هذه الديار اليوم أن تسمى دار إسلام، سواء نظرنا إلى دين أهلها أو الأحكام والسلطان المتغلب عليها.

وبالتالي لا يمكن لمن عرف الإسلام أن يجهل حال هذه الديار التي يدعي أهلها الإسلام وهم منه براء، ومن سمى هذه الديار أو أحدها ديار إسلام فإنما لجهله به وعدم معرفته لحقيقته والفرق بينه وبين الكفر.

فهل أهل هذه الديار لا يعبدون إلا الله وحده ولا يشركون به شيئا ويتبرؤون من الكفار والمشركين ومما يعبدون من دون الله ويَكْفُرون بهم ويعادونهم ويبغضونهم؟!

إن كانوا كذلك استحقوا أن يكونوا مسلمين.

وهل الأحكام والسلطان في هذه الديار هي أحكام الإسلام والشريعة الحنيفية السمحة؟ وهل السيادة فيها للمسلمين؟!

إن كان الأمر كذلك فهي حقا ديار إسلام.

أما إن كان الأمر بخلاف ذلك، بحيث لو نظرتَ إليها من خلال ما يدين به غالب أهلها وجدتهم كفارا، ولو نظرت إليها من خلال الأحكام والسلطان والسيادة فيها وجدتها للكفر والطاغوت؛ فكيف يستقيم وصفها بديار الإسلام؟! هذا لا يتصوره من عرف دين الله الذي بعث به رسله وأكمله على لسان نبيه خاتم المرسلين.

وهذا الأمر يعتبر في غاية الوضوح عند المسلمين الذين عرفوا حقيقة الفرق بين الإسلام والكفر، ولم يكن مثل هذا الأمر خافيا على المسلمين على مر العصور من قبل، فلم تكن هناك علمانية تفرق بين دين الفرد ودين الدولة، ولم يكن هناك من يدخل في الدين ليتبعه في حياته الخاصة ويتبع شريعة الدولة في علاقته بالناس.

والخطأ الحادث اليوم من كثير من الناس علماء وجهال في الحكم على دار الكفر بأنها دار إسلام بسبب الخطأ في تعريف الإسلام والمسلم وتعريف الكفر والكافر، وهذا كفر، لم يعرف صاحبه الإسلام، كالذين يعتبرون ظهور

الشعائر والمساجد دلالة على أنها دار إسلام، فهؤلاء يعتبرون الناس مسلمين، متغافلين عن الكفر الظاهر أصالة دون عقد ذمة ولا أمان، والذين يختلفون اليوم في أحكام الديار وأحكام أهلها لا يفرقون بين الإسلام والكفر لأنهم لا يعرفون حقيقة دين الإسلام.

فكما يميز التوحيد بين الناس فيجعلهم فريقين مسلم موحد وكافر مشرك، كذلك يميز بين الدور فيفرق بين دار الإسلام ودار الكفر.

ولا خلاف في أن البلاد التي يسكنها الكفار ويحكمون فيها بالكفر هي دار كفر.

وكذلك لا خلاف في أن دار الإسلام هي البلاد التي تخضع لحكم الإسلام ويحكمها المسلمون سواء أكان سكانها مسلمين أو كانوا ذميين.

هذا كل ما نحتاج إليه في بيان حكم الديار في هذا الزمان التي نسأل الله أن يجعلنا لها من الفاتحين، ويستبدلها بديار يعلو فيها الإسلام على ما سواه ويأمن فيها المسلمون على دينهم.

وهذه بعض أقوال أهل العلم في تحديد المناط المعتبر والوصف المؤثر في الحكم على الديار نذكرها للفائدة:

قال ابن مفلح في الآداب الشرعية:

فصل في تحقيق دار الإسلام ودار الحرب:

فكل دار غلب عليها أحكام المسلمين فدار الإسلام، وإن غلب عليها أحكام الكفار فدار الكفر، ولا دار لغيرهما.

وقال الشيخ تقي الدين: وسئل عن ماردين هل هي دار حرب أو دار إسلام؟

قال: هي مركبة فيها المعنيان، ليست بمنزلة دار الإسلام التي يجري عليها أحكام الإسلام لكون جندها مسلمين، ولا بمنزلة دار الحرب التي أهلها كفار، بل هي قسم ثالث، يعامل المسلم فيها بما يستحقه، ويعامل الخارج عن شريعة الإسلام بما يستحقه.

والأول هو الذي ذكره القاضي والأصحاب والله أعلم.ا.هـ

وسوف نوضح فتوى الشيخ تقي الدين ابن تيمية هذه حول دار ماردين في الفصل القادم إن شاء الله.

وقال ابن القيم في كتابه أحكام أهل الذمة: قال الجمهور: دار الإسلام هي التي نزلها المسلمون وجرت عليها أحكام الإسلام، وما لم تجرِ عليه أحكام الإسلام لم يكن دار إسلام وإن لاصقها، فهذه الطائف قريبة إلى مكة جداً ولم تصر دار إسلام بفتح مكة، وكذلك الساحل.ا.هـ

ويقول السرخسي في المبسوط: والحاصل أن عند أبي حنيفة رحمه الله تعالى إنما تصير دارهم دار الحرب بثلاث شرائط:

أحدها: أن تكون متاخمة أرض الترك ليس بينها وبين أرض الحرب دار للمسلمين.

والثاني: أن لا يبقى فيها مسلم آمن بإيمانه ولا ذمي آمن بأمانه.
والثالث: أن يُظهروا أحكام الشرك فيها.

وعن أبي يوسف ومحمد رحمهما الله تعالى: إذا أظهروا أحكام الشرك فيها فقد صارت دارهم دار حرب. لأن البقعة إنما تنسب إلينا أو إليهم باعتبار القوة والغلبة، فكل موضع ظهر فيه حكم الشرك فالقوة في ذلك الموضع للمشركين فكانت دار حرب، وكل موضع كان الظاهر فيه حكم الإسلام فالقوة فيه للمسلمين.

ولكن أبو حنيفة رحمه الله تعالى يعتبر تمام القهر والقوة، لأن هذه البلدة كانت من دار الإسلام محرزة للمسلمين فلا يبطل ذلك الإحراز إلا بتمام القهر من المشركين، وذلك باستجماع الشرائط الثلاث؛ لأنها إذا لم تكن متصلة بالشرك فأهلها مقهورون بإحاطة المسلمين بهم من كل جانب. فكذلك إن بقى فيها مسلم أو ذمي آمن فذلك دليل عدم تمام القهر منهم.ا.هـ.

وقال الكساني في بدائع الصنائع وهو حنفي أيضاً: فَصْلٌ وَأَمَّا بَيَانُ الْأَحْكَامِ التي تَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ الدَّارَيْنِ فَنَقُولُ: لَا بُدَّ أَوَّلًا من مَعْرِفَةِ مَعْنَى الدَّارَيْنِ دَارِ الْإِسْلَامِ وَدَارِ الْكُفْرِ لِتُعْرَفَ الْأَحْكَامُ التي تَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِهِمَا، وَمَعْرِفَةُ ذلك مَبْنِيَّةٌ على مَعْرِفَةِ ما بِهِ تَصِيرُ الدَّارُ دَارَ إسْلَامٍ أو دَارَ كُفْرٍ.

فَنَقُولُ: لَا خِلَافَ بين أَصْحَابِنَا في أَنَّ دَارَ الْكُفْرِ تَصِيرُ دَارَ إسْلَامٍ بِظُهُورِ أَحْكَامِ الْإِسْلَامِ فيها.

وَاخْتَلَفُوا في دَارِ الْإِسْلَامِ أنها بِمَاذَا تَصِيرُ دَارَ الْكُفْرِ:

قال أبو حَنِيفَةَ إنَّهَا لَا تَصِيرُ دَارَ الْكُفْرِ إلَّا بِثَلَاثِ شَرَائِطَ: أَحَدُهَا: ظُهُورُ أَحْكَامِ الْكُفْرِ فيها، وَالثَّانِي: أَنْ تَكُونَ مُتَاخِمَةً لِدَارِ الْكُفْرِ، وَالثَّالِثُ: أَنْ لَا يَبْقَى فيها مُسْلِمٌ وَلَا ذِمِّيٌّ آمِنًا بِالْأَمَانِ الْأَوَّلِ وهو أَمَانُ الْمُسْلِمِينَ.

وقال أبو يُوسُفَ وَمُحَمَّدٌ رَحِمَهُمَا اللَّهُ: إنَّهَا تَصِيرُ دَارَ الْكُفْرِ بِظُهُورِ أَحْكَامِ الْكُفْرِ فيها.

وَجْهُ قَوْلِهِمَا أَنَّ قَوْلَنَا دَارُ الْإِسْلَامِ وَدَارُ الْكُفْرِ إضَافَةُ دَارٍ إلَى الْإِسْلَامِ وَإِلَى الْكُفْرِ، وَإِنَّمَا تُضَافُ الدَّارُ إلَى الْإِسْلَامِ أو إلَى الْكُفْرِ لِظُهُورِ الْإِسْلَامِ أو الْكُفْرِ فيها، كما تُسَمَّى الْجَنَّةُ دَارَ السَّلَامِ وَالنَّارُ دَارَ الْبَوَارِ لِوُجُودِ السَّلَامَةِ في الْجَنَّةِ وَالْبَوَارِ في النَّارِ، وَظُهُورُ الْإِسْلَامِ وَالْكُفْرِ بِظُهُورِ أَحْكَامِهِمَا، فإذا ظَهَرَ أَحْكَامُ الْكُفْرِ في دَارٍ فَقَدْ صَارَتْ دَارَ كُفْرٍ فَصَحَّتْ الْإِضَافَةُ، وَلِهَذَا صَارَتْ الدَّارُ دَارَ الْإِسْلَامِ بِظُهُورِ أَحْكَامِ الْإِسْلَامِ فيها من غَيْرِ شَرِيطَةٍ أُخْرَى، فَكَذَا تَصِيرُ دَارَ الْكُفْرِ بِظُهُورِ أَحْكَامِ الْكُفْرِ فيها. وَاَللَّهُ أَعْلَمُ.ا.هـ.

قال ابن حزم في المحلى: وَقَوْلُ رسول اللَّهِ صلى الله عليه وسلم (أنا بَرِيءٌ من كل مُسْلِمٍ أَقَامَ بين أَظْهُرِ الْمُشْرِكِينَ) يُبَيِّنُ ما قُلْنَاهُ وَأَنَّهُ عليه السلام إنَّمَا عَنَى بِذَلِكَ دَارَ الْحَرْبِ وَإِلَّا فَقَدْ اسْتَعْمَلَ عليه السلام عُمَّالَهُ على خَيْبَرَ وَهُمْ كلهم يَهُودُ. وإذا كان أَهْلُ الذِّمَّةِ في مَدَائِنِهِمْ لاَ يمازجهم غَيْرُهُمْ فَلاَ يُسَمَّى السَّاكِنُ فِيهِمْ لإمارة عليهم أو لِتِجَارَةٍ بَيْنَهُمْ كَافِرًا وَلاَ مُسِيئًا، بَلْ هو مُسْلِمٌ محسن وَدَارُهُمْ دَارُ إسْلاَمٍ لاَ دَارُ شِرْكٍ؛ لِأَنَّ الدَّارَ إنَّمَا تُنْسَبُ لِلْغَالِبِ عليها وَالْحَاكِمُ فيها وَالْمَالِكُ لها.ا.هـ.

وقال المرداوي في كتابه الإنصاف: وَدَارُ الْحَرْبِ ما يَغْلِبُ فيها حُكْمُ الْكُفْرِ.ا.هـ.

ومن خلال الاطلاع على أقوال الفقهاء بمختلف مذاهبهم نجد أن الوصف المؤثر والعلة المنضبطة عند جمهور العلماء في الحكم على الدار ووصفها بالإسلام أو الكفر هو عُلو وظهور وغلبة الأحكام والسلطان، وهذا الوصف المذكور سالم عن المعارضة والنقض فالحكم يدور معه وجودا وعدما.

- فإن كان العلو والغلبة والظهور والسلطان لأحكام الإسلام وشريعة الرحمن فالدار لاشك دار إسلام.
- وإن كان العلو والغلبة والظهور والسلطان لأحكام الكفر وشريعة الشيطان فالدار لاشك دار كفر.

ولزيادة تثبيت وإيضاح هذا المناط والوصف المؤثر في الحكم على الديار، نذكر أمثلة لذلك:

الأول: مكة – أعزها الله بنصره– قبل الفتح وبعده.

كانت مكة بلد الله الحرام قبل فتح النبي صلى الله عليه وسلم لها دار كفر بإجماع العلماء أمر متفق عليه يعلمه القاصي والداني، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم قد بدأ دعوته لدين الله في هذه الدار، ولم يتبعه من أهلها إلا القليل، يزداد عددهم شيئا فشيئا، وكانوا مستضعفين لا شوكة لهم ولا منعة، وكانت الغلبة والمنعة للكفار، ولم يكن للإسلام حكم على أهلها، وهاجر عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن قدر على الهجرة من أصحابه، وبقي فيه نفر قليل من المسلمين مستضعفين تحت وطأة الكفار، وهي في كل هذه الظروف دار كفر، واستمرت على ذلك حتى فتحها رسول الله صلى الله عليه وسلم ونفذ حكمه على أهلها، فصارت دار إسلام بإجماع الأمة.

فالبلد هنا واحد لم يتغير وهو بلد الله الحرام، ولكن وصفها تغير من الكفر إلى الإسلام، فما الذي جدَّ عليها حتى غيَّر وصفها؟

فَيَوْمَ كانت أحكام الكفر وسيادة الكفار غالبة عليها كانت بلد كفر، مع أن فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن معه من المسلمين، ولما تغلب عليها المسلمون ونفذ حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم على أهلها وصارت السيادة للإسلام تحولت إلى دار إسلام، وهذا يؤكد أن علو الأحكام والسلطان هو الوصف المعول عليه في الحكم على الديار.

وقد ذكر أئمة الدعوة النجدية: أنها صارت دار كفر مرة أخرى، لما انتشر فيها الشرك، وفشا فيها فشواً ظاهراً، وأصبح الإسلام الحق فيها غريباً، وصارت الغلبة للكفر وأهله.

قال الشيخ حمد بن عتيق –رحمه الله– في جوابه لمن ناظره في حكم أهل مكة، وما يقال في البلد نفسه. والرسالة موجودة في مجموعة الدرر السنية:

قد بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم بالتوحيد الذي هو دين جميع الرسل، وحقيقته؛ هو مضمون شهادة "أن لا إله إلا الله"، وهو أن يكون الله معبود الخلائق، فلا يتعبدون لغيره بنوع من أنواع العبادة، ومخ العبادة هو

الدعاء، ومنها الخوف والرجاء والتوكل والإنابة والذبح والصلاة، وأنواع العبادة كثيرة، هذا الأصل العظيم الذي هو شرط في صحة كل عمل.

والأصل الثاني: هو طاعة النبي صلى الله عليه وسلم في أمره، وتحكيمه في دقيق الأمور وجليلها، وتعظيم شرعه ودينه، والإذعان لأحكامه في أصول الدين وفروعه.

فالأول: ينافي الشرك، ولا يصح وجوده مع وجوده.

والثاني:ينافي البدع، ولا يستقيم مع حدوثها.

فإذا تحقق وجود هذين الأصلين – علماً وعملاً ودعوة – وكان هذا دين أهل البلد – أي بلد كان – بأن عملوا به ودعوا إليه وكانوا أولياء لمن دان به، ومعادين لمن خالفه؛ فهم موحدون.

وأما إذا كان الشرك فاشياً، مثل؛ دعاء الكعبة والمقام والحطيم ودعاء الأنبياء والصالحين، وإفشاء توابع الشرك، مثل؛ الزنا والربا وأنواع الظلم ونبذ السنن وراء الظهر، وفشو البدع والضلالات، وصار التحاكم إلى الأئمة الظلمة ونوَّاب المشركين، وصارت الدعوة إلى غير القرآن والسنة، وصار هذا معلوماً – في أي بلد كان – فلا يشك من له أدنى علم؛ أن هذه البلاد محكوم عليها بأنها بلاد كفر وشرك، لا سيما إذا كانوا معادين أهل التوحيد وساعين في إزالة دينهم وفي تخريب بلاد الإسلام.

وإذا أردت إقامة الدليل على ذلك؛ وجدت القرآن كله فيه، وقد أجمع عليه العلماء، فهو معلوم بالضرورة عند كل عالم....

ويا لله العجب! إذا كنتم تخفون توحيدكم في بلادهم، ولا تقدرون أن تصرحوا بدينكم، وتخافتون بصلاتكم لأنكم علمتم عداوتهم لهذا الدين وبغضهم لمن دان به، فكيف يقع لعاقل إشكال؟!

أرأيتم لو قال رجل منكم لمن يدعو الكعبة أو المقام أو الحطيم ويدعو الرسول والصحابة؛ "يا هذا لا تدعو غير الله"، أو "أنت مشرك"، هل تراهم يسامحونه؟ أم يكيدونه؟

فليعلم المجادل؛ أنه ليس على توحيد الله، فوالله ما عرف التوحيد ولا تحقق بدين الرسول صلى الله عليه وسلم.

أرأيت رجلاً عندهم قائلاً لهؤلاء؛ "راجعوا دينكم"، أو "اهدموا البناآت على القبور، ولا يحل لكم دعاء غير الله"، هل ترى يكفيهم فيه فعل قريش بمحمد صلى الله عليه وسلم؟!

لا! والله... لا! والله.

وإذا كانت الدار؛ دار إسلام، لأي شيء لم تدعوهم إلى الإسلام وتأمرهم بهدم القباب واجتناب الشرك وتوابعه. فإن يكن قد غرَّكم أنهم يصلون ويحجون، أو يصومون ويتصدقون، فتأملوا الأمر من أوله؛ وهو أن التوحيد قد تقرر في مكة بدعوة إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليهما السلام، ومكث أهل مكة عليه مدة من الزمن، ثم فشا فيهم الشرك بسبب عمرو بن لحي وصاروا مشركين، وصارت البلاد؛ بلاد شرك، مع أنه قد بقي معهم أشياء من

الدين، وكما كانوا يحجون ويتصدقون على الحاج وغير الحاج، وقد بلغكم شعر عبد المطلب الذي أخلص فيه قصة الفيل، وغير ذلك من البقايا، ولم يمنع الزمان ذلك من تكفيرهم وعداوتهم.

بل الظاهر عندنا وعند غيرنا؛ أن شركهم اليوم أعظم من ذلك الزمان.

بل قبل هذا كله؛ أنه مكث أهل الأرض بعد آدم عشرة قرون على التوحيد، حتى حدث فيهم الغلو في الصالحين، فدعوهم مع الله؛ فكفروا، فبعث الله إليهم نوحاً عليه السلام يدعو إلى التوحيد، فتأمل ما قص الله عنهم.

وكذا ما ذكر عن هود عليه السلام؛ أنه دعاهم إلى إخلاص العبادة لله، لأنهم لم ينازعوه في أصل العبادة.

وكذلك؛ إبراهيم دعا قومه إلى إخلاص التوحيد، وإلا فقد أقروا لله بالإلهية.

وجماع الأمر؛ أنه إذا ظهر في بلد دعاء غير الله وتوابع ذلك، واستمر أهلها عليه وقاتلوا عليه، وتقررت عندهم عداوة أهل التوحيد وأبوا عن الانقياد للدين، فكيف لا يحكم عليها بأنها بلد كفر؟! – ولو كانوا لا ينتسبون لأهل الكفر، وأنهم منهم بريئون، مع مسبتهم لهم، وتخطئتهم لمن دان به، والحكم عليهم بأنهم خوارج أو كفار، فكيف إذا كانت هذه الأشياء كلها موجودة.ا.هـ.

وهاهي اليوم تعود دار كفر تحت سلطان الكفر وسيادة الكفار من جديد، أسأل الله أن يبعث من يجدد لنا الدين ويرفع راية الجهاد فنكون لها من الفاتحين.

الثاني: المدينة المنورة – طهَّرها الله من الكفر وأهله– قبل هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعدها.

من المعلوم أن هذه البلدة كانت تسمى يثرب، وكان يسكنها الأوس والخزرج، وقبائل من اليهود بني قريضة وبني قينقاع وبني النضير، وكانت دار كفر، وقد بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم مصعب بن عمير إلى المدينة ليدعو أهلها للإسلام، ويعلِّم من أسلم منهم أمور دينه، فانتشر الإسلام في بيوت كثيرة من القبيلتين الأوس والخزرج حتى رأوا أنهم قادرون على حماية النبي صلى الله عليه وسلم ونصرة دينه، فطلبوا منه الهجرة إليهم...

ومع وجود هذا العدد من المسلمين في هذه البلدة لم تصبح دار إسلام، إلى أن هاجر النبي صلى الله عليه وسلم إليها، وظهر حكمه على من فيها بمختلف دياناتهم، فصارت بذلك دار إسلام.

قال ابن إسحاق: وكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم كتابا بين المهاجرين والأنصار وادَعَ فيه يهود وعاهدهم، وأقرهم على دينهم وأموالهم، وشرط لهم واشترط عليهم....

ومما جاء في هذا الكتاب: وإنكم مهما اختلفتم فيه من شيء فإن مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد صلى الله عليه وسلم وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين، وإن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين لليهود دينهم وللمسلمين دينهم مواليهم وأنفسهم إلا من ظلم وأَثِمَ فإنه لا يُوتِغُ إلا نفسه وأهل بيته، وإن ليهود بني النجار مثل ما ليهود بني عوف........ا.هـ.

فلما علت أحكام الإسلام وسلطانه على هذه البقعة تغير وصف هذه الدار من الكفر إلى الإسلام.

وهذا دليل واضح أيضا على أن علو السلطان وغلبة الأحكام هو الوصف المؤثر في تغير الحكم على الدار بالكفر أو الإسلام، حيث أن وجود عدد من المسلمين في بلد معين – حتى ولو كان هذا العدد كبيراً– غير مؤثر في تغير الحكم على الدار مادام السلطان والغلبة لغيرهم، وكذلك وجود عدد من الكفار حتى ولو كان كثيرا لا يؤثر في وصف الدار التي تعلوها أحكام الإسلام وتحت سيادة المسلمين.

الثالث: دار خيبر قبل وبعد الفتح الإسلامي.

كانت خيبر دار كفر يسكنها اليهود، ولما قويت شوكة المسلمين بالمدينة، وكسرت شوكة المشركين من قريش، توجه رسول الله صلى الله عليه وسلم لفتح خيبر، وكانت ذا حصون كثيرة منيعة، ففتحها الله عليه، وصالح أهلها فأبقاهم عليها يحرثون ويزرعون ويهتمون بما فيها من أشجار على أن لهم الشطر من كل زرع ونخيل وشيء، ما بدا لرسول الله صلى الله عليه وسلم. فصارت خيبر بذلك دار إسلام بعد أن كانت دار كفر.

وهنا يظهر الوصف المؤثر ظهورا واضحا، حيث أننا لو نظرنا إلى أهل خيبر وسكانها وجدناهم من اليهود، ولو نظرنا إلى علو السلطان وغلبة الأحكام وجدناها للمسلمين، والدار كما قلنا صارت دار إسلام بالإجماع، فعلمنا أن الوصف المؤثر هو ما قد تقرر سابقاً وهو علو الأحكام والسيادة والغلبة.

فمن لاحظ هذه الديار في أحوالها المختلفة وجد أن وصف الدار يتغير بتغير السيادة والسلطان الغالب والأحكام الظاهرة على البلد، مما يثبت أن المناط المعتبر في وصف الديار هو علو الأحكام وغلبة السيادة والسلطان.

هذا ما يتعلق بأحكام الديار، وقلنا أن ما يعنينا في مثل زمننا هذا هو نوع واحد من الديار وهو الدار التي أهلها كفار، وتعلوها أحكام الكفر، والسيادة والسلطان فيها للكفار، وفيها قلة من المسلمين مستضعفين لا شوكة لهم ولا منعة ولا أمان.

وسوف نعود للكلام عن واقع ديار اليوم في الفصل الأخير بإذن الله.

الفصل السادس

توضيح فتوى ابن تيمية حول دار ماردين

جاء في الفتاوى الكبرى لابن تيمية:

سئل – رحمه الله – عن بلد ماردين هل هي بلد حرب أم بلد سلم، وهل يجب على المسلم المقيم بها الهجرة إلى بلاد الإسلام أم لا، وإذا وجبت عليه الهجرة ولم يهاجر، وساعد أعداء المسلمين بنفسه أو ماله، هل يأثم في ذلك، وهل يأثم من رماه بالنفاق وسبَّه به، أم لا؟

فأجاب بقوله: الحمد لله. دماء المسلمين وأموالهم محرمة حيث كانوا في ماردين أو غيرها، وإعانة الخارجين عن شريعة دين الإسلام محرمة، سواء كانوا أهل ماردين أو غيرهم، والمقيم بها إن كان عاجزا عن إقامة دينه وجبت الهجرة عليه، وإلا استحبت ولم تجب، ومساعدتهم لعدو المسلمين بالأنفس والأموال محرمة عليهم، ويجب عليهم الامتناع من ذلك بأي طريق أمكنهم من تغييب، أو تعريض، أو مصانعة، فإذا لم يمكن إلا بالهجرة تعينت، ولا يحل سبهم عموما ورميهم بالنفاق، بل السبُّ والرمي بالنفاق يقع على الصفات المذكورة في الكتاب والسنة، فيدخل فيها بعض أهل ماردين وغيرهم.

وأما كونها دار حرب أو سلم فهي مركبة فيها المعنيان، ليست بمنزلة دار السلم التي يجري عليها أحكام الإسلام، لكون جندها مسلمين، ولا بمنزلة دار الحرب التي أهلها كفار، بل هي قسم ثالث، يعامل المسلم فيها بما يستحقه، ويقاتل الخارج عن شريعة الإسلام بما يستحقه.ا.هـ.

والذي سنتطرق إليه في هذه الفتوى هو قول الشيخ: (وأما كونها دار حرب أو سلم فهي مركبة فيها المعنيان، ليست بمنزلة دار السلم التي يجري عليها أحكام الإسلام، لكون جندها مسلمين، ولا بمنزلة دار الحرب التي أهلها كفار، بل هي قسم ثالث).

وقبل أن نشرع في توضيح ما فهمناه من هذه الفتوى لابد أن نعرج على مقدمة مهمة لكل طالب علم وباحث عن الحق:

اعلم – أرشدك الله – أن العصمة والفوز والفلاح باتباع قول الله وقول رسوله صلى الله عليه وسلم، وأن الخيبة والخسران والخذلان في مخالفة ذلك، فينبغي أنْ لا يقبل مسلم قولا في دين الله مِن أحدٍ كائنا مَن كان، إلا إذا كان مستنداً إلى دليل شرعي من نصّ كتاب أو سنة، قال تعالى: (اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ) (الأعراف:٣)، وقال عز وجل: (مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ) (العنكبوت:٤١).

فالإسلام ألا نعبد إلا الله ولا نعبده إلا بما شرع، فلا بد من توحيد الله بالعبادة وتجريد المتابعة عن رسوله صلى الله عليه وسلم، فلا نحيد عن سنته يمنة ولا يسرة، ولا نحكّم غيره في دقيق الدين وعظيمه، ولا نقدم قول غيره

على قوله، ونرد ما تنازعنا فيه لله ورسوله، ولا نجعل من قول غيره أصلا نحاكم إليه من خالفنا، ونرجع إليه إذا تنازعنا، ونوالي ونعادي عليه. فما من أحد إلا وهو مأخوذ من كلامه ومردود عليه إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم.

والله عز وجل يقول: (وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً) (النساء: من الآية٨٢). فلا شيء يجمع الناس على الحق ويفصل بينهم فيما اختلفوا فيه غير كتاب الله وسنة نبيه، ولهذا أمرنا بالرد إليهما عند النزاع.

وقد نهى الأئمة الأربعة عن تقليدهم وذمّوا من أخذ أقوالهم بغير حجة، فالواجب علينا أن نطلب الدليل والحجة التي نلقى بها الله عز وجل، ولن يسألنا الله عن كتب ابن تيمية ولا ابن القيم ولا غيرهم ولكن يسألنا عن كتابه العزيز: (فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ) (الزخرف٤٤:٤٣)، وعن سنة نبيه الكريم (مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ) (القصص: من الآية٦٥).

وأما أقوال أهل العلم فيحتج لها لا بها؛ فليست هي الأدلة وإنما تفتقر إلى الأدلة، بل إن من اعتقد أن كلام العلماء برهان لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، أو يحق الحق ويبطل الباطل ككلام الله ورسوله صلى الله عليه وسلم فهو كافر، قال الإمام ابن تيمية رحمه الله: (وإذا كان الرجل متبعا لأبى حنيفة أو مالك أو الشافعي أو أحمد ورأى في بعض المسائل أن مذهب غيره أقوى فاتبعه كان قد أحسن في ذلك، ولم يقدح ذلك في دينه ولا عدالته بلا نزاع، بل هذا أولى بالحق وأحب إلى الله ورسوله ممن يتعصب لواحد معين غير النبي، كمن يتعصب لمالك أو الشافعي أو أحمد أو أبى حنيفة ويرى أن قول هذا المعين هو الصواب الذي ينبغي إتباعه دون قول الإمام الذي خالفه، فمن فعل هذا كان جاهلا ضالا بل قد يكون كافرا، فإنه متى اعتقد أنه يجب على الناس إتباع واحد بعينه من هؤلاء الأئمة دون الإمام الآخر فإنه يجب أن يستتاب فإن تاب وإلا قتل).ا.هـ.

ولم يتكفّل الله عز وجل بحفظ أقوال العلماء كالكتاب والسنة، فما خالف منها الشرع الحنيف رُدَّ القول على قائله مع وجوب إحسان الظن بأهل العلم المشهورين بحسن الديانة. والله أعلم.

نأتي الآن لتوضيح مقصد ابن تيمية رحمه الله، وما عناه بهذه الفتوى، ولا شك أن معرفة الواقع التي أفتى فيه الشيخ بهذه الفتوى يساعد على فهم مقصده ومغزاه، فالواجب علينا أن ننظر أولاً إلى واقع دار ماردين في ذلك الوقت.

قصة هجوم التتار عليها:

ذكر المؤرخون أن الذي كان يحكم ماردين وقت هجوم التتار عليها هو الملك السعيد نجم الدين غازي بن أرتق أرسلان.

- قال الذهبي في كتابه تاريخ الإسلام:
عَلِم السعيد أن التتار لا بد لهم منه ومن حصاره، فنقل ما في البلد من الذخائر إلى القلعة. ثم بعد أربعة أيام وصلته رسل هولاكو بحربه، ووصل عقب ذلك طائفة من التتار، فنازلت ماردين في ثالث جمادى الأولى....
واستمر الحصار إلى آخر السنة، ووقع الوباء بالقلعة، فمات الملك السعيد فيمن مات، وهلك الخلق. ورمى رجل نفسه من القلعة وأخبر التتار بموت السلطان، فبعثوا إلى ابنه الملك المظفر وطلبوا منه الدخول في الطاعة.ا.هـ.

- وقال قطب الدين اليونيني في كتابه ذيل مرآة الزمان بعد أن ذكر قصة وفاة الملك السعيد سنة ثمان وخمسين وستمائة: أن التتار عندما سمعوا بوفاة الملك السعيد بعثوا إلى ولده الملك المظفر رسولاً، وطلبوا منه الدخول في الطاعة، وكان قد قام مقام أبيه، فأجابهم جواباً أرضاهم، وأظهر لهم الدخول في طاعتهم، والعمل على مداراتهم.ا.هـ.

فالملاحظ هنا أن ماردين استولى عليها التتار عن طريق الصلح بينهم وبين ملكها المظفر سنة ثمان وخمسين أو تسع وخمسين وستمائة على خلاف بين المؤرخين.
وأن ملكها أظهر لهم الدخول في طاعتهم والعمل على مداراتهم.

وبقي الملك المظفر في الملك ثلاثاً وثلاثين سنة، وولي بعده ابنه الملك السعيد داود، ثم ابنه الآخر الملك المنصور نجم الدين غازي، فبقي إلى سنة اثنتي عشرة وسبعمائة، واستمر ملك ماردين عند بني أرتق أرسلان إلى سنة تسع وثماني مائة كما ذكر المؤرخون.

وكان مولد شيخ الإسلام ابن تيمية سنة إحدى وستين وستمائة، وتوفي سنة ثمان وعشرين وسبعمائة. (٦٦١-٧٢٨). وكانت ماردين عندما سئل عنها الشيخ في صلح مع التتار، إما أن تكون في نهاية عهد الملك المظفر حاكم ماردين الذي تم في وقته الصلح مع التتار، أو عهد من بعده من الأمراء.

ونأتي الآن إلى بيان ما فهمناه من مقصد ابن تيمية رحمه الله:
قوله: (وأما كونها دار حرب أو سلم فهي مركبة فيها المعنيان).
فالمعنيان هنا يقصد بهما الشيخ أحكام الإسلام وأحكام الكفر. والله أعلم.
وقد ذكر ذلك الشيخ إسحاق بن عبد الرحمن آل الشيخ فقال رحمه الله: وما حكاه ابن مفلح، عن الشيخ تقي الدين: أن البلدة التي تظهر فيها أحكام الكفر وأحكام الإسلام، لا تُعطى حكم الإسلام من كل وجه، ولا حكم الكفر من كل وجه.ا.هـ. الدرر السنية.
وكذلك قال الشيخ سليمان بن سحمان في رسالته كشف الأوهام: وأما تعريف بلاد الكفر فقد ذكر الحنابلة وغيرهم أن البلدة التي تجري عليها أحكام الكفر ولا تظهر فيها أحكام الإسلام بلدة كفر.

وما ظهر فيها هذا وهذا فقد أفتى شيخ الإسلام ابن تيمية بأنه يراعى فيها الجانبان، فلا تعطى حكم الإسلام من كل وجه ولا حكم الكفر من كل وجه،كما نقله عنه ابن مفلح وغيره، وذكر بعض العلماء أن الحكم للأغلب عليها.ا.هـ.

فقوله (وما ظهر فيها هذا وهذا) أي ظهر فيها أحكام الكفر وأحكام الإسلام.

فمعنى قول ابن تيمية رحمه الله: (وأما كونها دار حرب أو سلم فهي مركبة فيها المعنيان) أي تظهر فيها أحكام الكفر وأحكام الإسلام.

ومسألة ظهور أحكام الكفر وأحكام الإسلام في البلد الواحد بحيث لا يغلب أحدهما على الآخر فتوصف الدار بالحكم الغالب أمر يدعو للاستغراب، ولابد من وجود من يظهر الكفر فهل هم الحكومة والجيش أم التتار أم سكان البلد؟! ولكن حسب ما يفهم من السؤال والجواب أن غالب سكان البلد مسلمين، والحكم فيما بينهم بأحكام الشريعة. والبلد كانت في صلح مع التتار فهم في حكم المتغلبون عليها، غير أنهم لم يجبروا أهلها على الكفر، وقد ذكر المؤرخون أن حاكمها أظهر للتتار الدخول تحت طاعتهم، وأنه كان يناصح سلطان المسلمين في السر، فهذا الأمر هو المانع من تسمية ماردين بدار الإسلام، لأن دار الإسلام أو دار السلم هي التي تعلوها أحكام الإسلام على غيره من أهل الأديان الأخرى، والغلبة فيها والسلطان للإسلام، وليس للكفار غلبة ولا سلطان ولا ظهور عليها، وماردين في صلح مع التتار والبلد تحت أيديهم.

ولهذا قال ابن تيمية: (ليست بمنزلة دار السلم التي يجري عليها أحكام الإسلام، لكون جندها مسلمين).

ويفهم من قول ابن تيمية: (ويقاتل الخارج عن شريعة الإسلام بما يستحقه) أن هناك من خرج عن شريعة الإسلام من أهل البلد ولعل ذلك من الجند المعاونين للتتر.

وقول الشيخ رحمه الله: (ولا بمنزلة دار الحرب التي أهلها كفار) ربما كان السبب في عدم وصف ابن تيمية للدار بالكفر هو أن أهلها ليسوا كفارا بل غالبهم من المسلمين، ولكن قد عرفنا في الفصل السابق أن ديانة أهل البلد ليست هي الوصف المؤثر في الحكم على البلد بل هو ظهور وغلبة الأحكام والسلطان ومثال ذلك خيبر بعد الفتح.

فإذا تغلب الكفار على بلد معين وصارت السيادة والسلطان لهم فالبلد بلد كفر، وإن ظل غالب أهلها متمسكين بإسلامهم.

وقد جاء في الدرر السنية: (وأما البلد التي يُحكم عليها بأنها بلد كُفر، فقال ابن مُفلح: وكل دار غلب عليها أحكام المسلمين فدار إسلام وإن غلب عليها أحكام الكفر فدار كفر ولا دار غيرهما. وقال الشيخ تقي الدين ابن تيمية وسُئل عن ماردين هل هى دار حرب أو دار إسلام؟ قال: هى مركبة فيها المعنيان ليست بمنزلة دار الإسلام التي تجري فيها أحكام الإسلام لكون جنودها مسلمين ولا بمنزلة دار الحرب التي أهلها كفار بل هى

قسم ثالث يُعامل المسلم فيها بما يستحقه ويُعامل الخارج عن شريعة الإسلام بما يستحقه. والأَوْلَى هو الذي ذكره القاضي والأصحاب). (الدرر السنية في الأجوبة النجدية) جمع ابن قاسم، جـ٧، كتاب الجهاد، صـ**٣٥٣**.

وهذا هو الأصح – والله أعلم – أن الدار إما دار كفر أو دار إسلام والحكم للمتغلب عليها، ولا داعي لإيجاد قسم ثالث تسمى فيه الدار بالدار المركبة لا دار إسلام ولا دار كفر. وعلى افتراض أن تسمية الدار بالمركبة صحيح فهي في حالة ظهور أحكام الكفر والإسلام فيها في آن واحد، وهذا مستغرب.

هذا ما تيسر لنا توضيحه حول فتوى شيخ الإسلام رحمه الله وإنما أوردناه هاهنا لكيلا يُفْهَمَ خطأً فيؤدي إلى الخلط والخطأ في تنزيل الأحكام.

والمعتبر عندنا في تقسيم الديار نوعان فقط هما: دار الكفر ودار الإسلام، وذلك حسب نوع الأحكام السائدة والظاهرة فيها، كما بيناه سابقاً، وهذا ما يوافق قول الجمهور.

فالوصف المعتبر هو للحكم الأغلب عليها.

وفتوى الشيخ ابن تيمية اجتهادٌ منه – رحمه الله – خاصٌ بدار ماردين في ذلك الوقت الذي سئل عنها، وقد حاولنا أن نعرف واقع تلك البلد في ذلك الوقت. وربما كانت فتواه وصفا لحال أهلها لا حكما على البلد نفسه. والله أعلم.

وليس هناك داراً من الديار اليوم تشبه دار ماردين ولا قريبة منها بحيث لا يمكننا أن نعرف نوع الأحكام السائدة والغالبة عليها ولمن السلطان والغلبة فيها. بل إن كافة الديار في هذا الزمن ديار كفر، السلطان والغلبة للكفر وأهلها كفار، والمسلمون قلة مستضعفة لا شوكة لهم ولا منعة ولا أمان، لاسلطان يضمهم ولا دار تأويهم. وقد بينا ذلك في الفصل السابق.

فالاستدلال بهذه الفتوى على واقع ديار اليوم لا هو دليل وحجة مقبولة، ولا هو استدلال في محله بل هو استدلالٌ بعيدٌ، واحتجاجٌ باطلٌ، وهذه الفتوى اجتهاد عالم في واقعة معينة يخطئ ويصيب، ولا يجوز اعتماده في الاحتجاج على واقع لا يشبهه بحال. فبعداً لمن أراد أن يلبس الحق بالباطل. والله أعلم.

الفصل السابع

في أحوال الديار اليوم وعلُو الأحكام فيها

عرفنا فيما سبق أن وصف الديار بالإسلام أو الكفر يعتمد على علو السلطان وغلبة الأحكام الجارية والظاهرة فيها. فما هو واقع الديار هذا الزمان والتي تنتسب للإسلام خصوصا؟

هل هي حقا ديار إسلام أما أنها ديار كفر كغيرها من دور العالم؟

لمن الغلبة والسيادة في هذه الديار؟ هل هي للإسلام وأهله؟

من الذين يحكمون هذه الديار؟ هل هم المسلمون يحكمونها بشريعة الرحمن؟

من المتغلب على الدار والنافذ حكمه فيها؟

هل أهل هذه الديار مسلمون آمنون محكومون بشريعة الرحمن؟ أم كفار ذميون تحت سلطان الإسلام؟ أم لا هذا ولا ذاك؟

وكما قلنا سابقا أن الجهل بحكم هذه الديار وحكم أهلها إنما هو بسبب الجهل بالحد الفارق بين الإسلام والكفر، وهذا يعني الجهل بالإسلام.

أما من شرح الله صدره للإسلام ونوَّر قلبه بنور الإيمان، فأصبح وكأنه ينظر إلى الناس من شاهق جبل وهم يغطسون في أوحال الشرك ومستنقعات الجاهلية، ويتيهون في ظلمات الكفر وعبادة الطاغوت، فمعرفة حكم هذه الديار وحكم أهلها ليست عليه بعسيرة، بل في غاية اليسر والسهولة.

إن واقع ديار اليوم واقع مظلم حقا، لا فرق بين ديار من يدعي الإسلام وديار النصارى وسائر الكفار، بل لافرق بين بلاد الحرمين وبين بريطانيا الكافرة، وقد يستغرب بل يستنكر هذه الجرأة من لا يعرف الإسلام، وخصوصا ممن أسلم قياده لِثُلَّة من الأحبار هم في الحقيقة أرباب تعبد من دون الله، الذين ما فَتِئُوا يلبسون باطل حكومتهم بثوب الإسلام، ويدَّعون أن بلادهم بلاد التوحيد والحكم بما أنزل الله.

إن الكفر في هذه الديار ظاهر واضح، والإسلام مضطهد غريب، أهل الحق قلة مستضعفون، وغالب أهلها كفار مشركون، صوت الحق فيها محارب مقموع، وصوت الباطل ظاهر مسموع، الحكم فيها لشريعة الشيطان، والدعوة فيها لمحاربة أهل الإيمان، ولاء أهلها على الوطنية والعلمانية والديمقراطية، والبراءة والمعاداة لأصحاب الملة الحنيفية، كلمة الكفر والشرك والفسوق فيها هي العليا، وكلمة الله في هذه الديار هي السفلى، الحكم السائد فيها حكم الجاهلية، والحمية حمية الجاهلية، والتبرج تبرج الجاهلية، والولاء ولاء الجاهلية.. شعائر الكفر فيها ظاهرة، وأصنام الجاهلية منتشرة، وقوانين الكفار مقدسة، والمحاكم الطاغوتية مزدحمة، والبنوك الأساسية ربوية.. أهل الباطل يتمتعون فيها بالحماية القانونية، وأهل الحق تطاردهم السلطات الحكومية.. يخاف

المسلم فيها على دينه، ويتمتع الكافر بحريته.. من دعا إلى الحق تعرض للسجن والعذاب، ومن دعا إلى الباطل يُسمع ويُجاب.

فيا أيها القارئ اللبيب، هذا قليل من كثير، فقل لي بالله عليك: أرأيت لأهل الإسلام في هذه الديار شوكة؟ أعلمت بلداً يُدعى فيه إلى الإسلام جهاراً؟.. أرأيت راية التوحيد ترفرف على بقعة من الأرض؟

أدخلت بلداً فرأيت العزة والسلطان فيها لأهل الإسلام؟.. أسمعت عن دولة لا توالي إلا على الإسلام؟

أسمعت عن بلد تدعو إلى معاداة الكفار والمشركين والبراءة منهم؟.. كم دولة تدعي الإسلام لم تدخل في ميثاق الأمم الكافرة ولم ترضَ به؟.. كم دولة رفضت الدخول في المعاهدات والمنظمات الدولية الكافرة؟

هل خلت دار من الديار اليوم عن أحكام الجاهلية؟.. هل هناك دولة واحدة لا تحكم إلا بشريعة رب البرية؟

هل هناك دولة يمكن للمسلمين المضطهدين أن يهاجروا إليها ويقيموا فيها دينهم؟

نقول هذا لأننا لا نشك في أن كل الديار اليوم ديار كفر، قد علتها أحكام الجاهلية، وسادها سلطان الكفر، وحكمها طواغيت تحارب الإسلام وأهله، بداية من بلاد الحرمين إلى آخر دولة في العالم.

هذا ما ندين به لله عز وجل غير مترددين ولا مرتابين، ونسأل الله العلي العظيم أن يجعلنا لهذه الديار من الفاتحين، وأن يمكن لنا في الأرض، وينصرنا على القوم الكافرين هو مولانا وهو خير الناصرين.

وهذه بعض المظاهر التي تدل على الكفر والشرك والخروج عن دين الله في البلاد التي تدعي الإسلام:

المظهر الأول: الجهل بحقيقة دين الإسلام، أي الجهل بالتوحيد وما يناقضه من الشرك.

فأكثر الناس اليوم ليس لهم من الإسلام إلا مجرد قول لا إله إلا الله باللسان فقط دون معرفة معناها ولا عمل بمقتضاها، ولا يعلمون أن الإسلام لا يتحقق إلا بعبادة الله وحده والبراءة من الشرك وأهله.

والذي لا يعرف الإسلام الحق، ولا يميز بين التوحيد وضده، لا يمكن أن يكون معتقدا للإسلام، ولا مقرا به، ولا عاملا به، ولا متبرئا مما يناقضه، وبالتالي لا يمكن أن يكون مسلما.

فالمسلم هو من وحّد الله بالاعتقاد والقول والعمل، وتبرأ من الشرك بالاعتقاد والقول والعمل، وكفَّر المشركين وعاداهم وأبغضهم، ولا يتحقق شيء من ذلك بغير العلم بحقيقة الإسلام، فالجهل بالإسلام يعني عدم الإسلام، ومن لم يكن عنده إسلام فهو كافر بلا شك.

وهذا الجهل ظاهر على الناس وليس أمرا باطنا، وخصومنا من أئمة الضلال قد أقروا بأن أكثر الناس يجهلون التوحيد ولا يعرفون ما يناقضه، ولكنهم اعتبروا هذا الجهل مانعا من لحوق وصف الكفر والشرك بهم، وأهل الحق اعتبروا هذا الجهل مانع من لحوق وصف الإسلام بهم لعدم وجود الإسلام عند من يجهله لا في الاعتقاد ولا في الإقرار والشهادة ولا في العمل.

فأين هم العلماء والولاة المسلمون؟! كيف ينتشر هذا الجهل بين رعاياهم إن كانوا حقا علماء وولاة مسلمين؟! وما هو موقفهم منه؟ كيف ينشغلون عنه بغيره إن كانوا يعتقدون أن الإسلام لا يكون مع الجهل به؟! ولكن الحق

أنهم هم سبب هذا الجهل، وهم منْبَعُه، وهم المدافعون عنه المبررون له الراضون به؛ لأن هذا هو الذي يتمشى مع مصالحهم ومكانتهم، ولو أفاق الناس من جهلهم وغفلتهم لأيقنوا أن علماءهم وحكامهم أكفر أهل الأرض، ولا بد من يوم يعرف فيه الناس هذه الحقيقة، إن لم يكن اليوم فغدا، ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ (٣١) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ (٣٢) وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٣٣)﴾ (سبأ: ٣١ – ٣٣).

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا﴾ (الأحزاب:٦٧).

المظهر الثاني: انتشار عبادة الأصنام والأوثان المتمثلة في القبور والأضرحة والأشجار والأحجار، وهذه العبادة تتمثل في:

- اعتقاد النفع والضر في غير الله.
- اعتقاد الشفاعة في غير الله واتخاذ وسائط بينهم وبين الله.
- التوجه لهم بالعبادات التي لا تنبغي إلا لله كالدعاء والذبح والنذر والحلف والطواف والتبرك والسجود والتوكل والخوف والمحبة وغيرها.

المظهر الثالث: الإيمان بالطاغوت المتمثل في الأحكام والتشريعات المخالفة لشريعة الله كالقانون الوضعي.

وتتجلى صور الإيمان به في عدة وجوه:

- الموافقة عليه والرضى به.
- مدحه وتزكيته وتعظيمه والتحريض عليه.
- حراسته والدفاع عنه.
- تقديمه على شريعة الرحمن جل وعلا.
- اعتقاد جواز الحكم به.
- وأعظم من ذلك القول بأنه أحسن من حكم الله في ملائمة الواقع والتطورات.
- وأعظم من ذلك اعتماده دستوراً للبلاد وتنحية شريعة الله عن الحكم والمنع من الحكم بها ورفضها.
- الإقبال عليه والاهتمام به بتشكيل مدارس ومعاهد وكليات لإعداد المتخصصين به من القضاة والمحامين ووكلاء النيابة والمحققين وغيرهم.
- الحكم به وتحكيمه في تنظيم جميع مجالات الحياة، وفي الخصومات الحادثة في الحقوق والدماء والفروج والأموال وغيرها.
- تشكيل المحاكم الخاصة للحكم به، وتحاكم الناس إليها في كل ما شجر بينهم.

- موالاة الطاغوت المتمثلة في الانضمام إليه والعمل في أجهزته التي تحميه وتنصره، وتدافع عنه، وتحارب أعداءه، وتقاتل في سبيله، وتطبق شريعته، كأجهزة الجيش والشرطة والأمن والحرس والقوات الخاصة وغيرها.

المظهر الرابع: عدم تكفير المشركين ممن ترك التوحيد ولم يأتِ به، وعبد غير الله، وانشراح الصدر لهم ومحبتهم والتودد إليهم، ونصرتهم والوقوف معهم، والذب عنهم.

كل هذه المظاهر موجودة ومنتشرة وظاهرة للعيان، وهي خير دليل على كفر القوم الذين تفشَّت فيهم، وانتشرت بينهم وظهرت في واقعهم.

فهل هناك دولة من دول العالم اليوم لم يظهر فيها هذه المظاهر الكفرية؟

يقول سيد قطب – رحمه الله – في ظلال القرآن:

وأحسب – والله أعلم – أنه كان من ثمرة اليأس من هذا الدين أن عدل اليهود والصهيونيون والنصارى الصليبيون عن مواجهة الإسلام جهرة عن طريق الشيوعية أو عن طريق التبشير ؛ فعدلوا إلى طرائق أخبث ، وإلى حبائل أمكر.. لجأوا إلى إقامة أنظمة وأوضاع في المنطقة كلها تتزيا بزي الإسلام؛ وتتمسح في العقيدة؛ ولا تنكر الدين جملة..ثم هي تحت هذا الستار الخادع تنفذ جميع المشروعات التي أشارت بها مؤتمرات التبشير وبروتوكولات صهيون ثم عجزت عن تنفيذها كلها في المدى الطويل!

إن هذه الأنظمة والأوضاع ترفع راية الإسلام – أو على الأقل تعلن احترامها للدين – بينما هي تحكم بغير ما أنزل الله، وتقصي شريعة الله عن الحياة، وتحل ما حرم الله، وتنشر تصورات وقيما مادية عن الحياة والأخلاق تدمر التصورات والقيم الإسلامية، وتسلط جميع أجهزة التوجيه والإعلام لتدمير القيم الأخلاقية الإسلامية، وسحق التصورات والاتجاهات الدينية، وتنفذ ما نصَّت عليه مؤتمرات المبشرين وبروتوكولات الصهيونيين من ضرورة إخراج المرأة المسلمة إلى الشارع، وجعلها فتنة للمجتمع باسم التطور والتحضر ومصلحة العمل والإنتاج؛ بينما ملايين الأيدي العاملة في هذه البلاد متعطلة لا تجد الكفاف! وتيسر وسائل الانحلال وتدفع الجنسين إليها دفعا بالعمل والتوجيه.. كل ذلك وهي تزعم أنها مسلمة وأنها تحترم العقيدة! والناس يتوهمون أنهم يعيشون في مجتمع مسلم، وأنهم هم كذلك مسلمون! أليس الطيبون منهم يصلون ويصومون؟! أما أن تكون الحاكمية لله وحده أو تكون للأرباب المتفرقة، فهذا ما قد خدعتهم عنه الصليبية والصهيونية والتبشير والاستعمار والاستشراق وأجهزة الإعلام الموجهة، وأفهمتهم أنه لا علاقة له بالدين. وأن المسلمين يمكن أن يكونوا مسلمين، وفي دين الله بينما حياتهم كلها تقوم على تصورات وقيم وشرائع وقوانين ليست من هذا الدين!.ا.هـ.

قال ابن تيمية رحمه الله: (وبالجملة فالشرك والدعوة إلى غير الله وإقامة معبود غيره أو مطاع متبع غير الرسول صلى الله عليه وسلم هو أعظم الفساد في الأرض، ولا صلاح لها ولأهلها إلا أن يكون الله وحده هو المعبود، والدعوة له لا لغيره، والطاعة والإتباع لرسول الله).

وقد أخبر المصطفى صلى الله عليه وسلم أن أمته ستتبع سنن الأمم قبلها اليهود والنصارى وغيرهم، ومن المعلوم أن هاتين الطائفتين كانتا على حق، فغيّروا وبدّلوا وابتدعوا، وانحرفوا عن الصراط المستقيم.

روى البخاري في صحيحه ومسلم وغيرهما: عن أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:(لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حتى تَأْخُذَ أُمَّتِي بِأَخْذِ الْقُرُونِ قَبْلَهَا شِبْرًا بِشِبْرٍ وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ، فَقِيلَ يا رَسُولَ اللَّهِ كَفَارِسَ وَالرُّومِ؟ فقال وَمَنْ الناس إلا أُولَئِكَ).

وعن أبي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:(لَتَتْبَعُنَّ سَنَنَ من كان قَبْلَكُمْ شِبْرًا بشبر وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ حتى لو دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ تَبِعْتُمُوهُمْ، قُلْنَا يا رَسُولَ اللَّهِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى؟ قال: فَمَنْ).

وقال أبو الحسن الملطي في الرد على أهل الأهواء والبدع:

جاء رجل إلى حذيفة ﷺ فقال: يا أبا عبد الله أكفرت بنو إسرائيل في يوم واحد؟ قال: لا، ولكن كانت تعرض عليهم الفتنة فيأبونها فيُكرهون عليها حتى يدخلوا فيها، ثم تعرض عليهم أكبر منها فيأبونها فيضربون عليها حتى يدخلوا فيها، ثم تعرض عليهم أكبر منها فيأبونها فيضربون عليها ويقولون والله لا ندخل في هذه أبدا، فيضربون عليها حتى يدخلوا فيها، حتى انسلخوا من دينهم كما ينسلخ أحدكم من قميصه.ا.هـ.

وقد أخبرنا الله ورسوله صلى الله عليه وسلم عما أحدثه أهل الكتاب في دينهم، وما ابتدعوه من الكفر والشرك، ومن ذلك: الحكم بغير ما أنزل الله، وتبديل أحكامه وشريعته، وأنهم لا يحرمون ما حرم الله ورسوله، ولا يدينون دين الحق، وأنهم اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله، وأنهم اتخذوا قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد، وأنهم تركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأكلوا الربا وقد نهوا عنه، وتولوا أعداء الله وحاربوا أولياءه، وآمنوا بالجبت والطاغوت، وقالوا للكفار والمشركين أنتم أهدى سبيلا من الرسول صلى الله عليه وسلم وأتباعه، إلى غير ذلك من الكفر والشرك والتحريف.

ولقد وقع ما أخبر به الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم، واقتفت أمته سنن أهل الشرك والإلحاد، واتبعوا آثار اليهود والنصارى، وانطمس مفهوم الدين الحق لدى كثير من الناس، وصارت ديار الإسلام نسخة من ديار الكفر والإلحاد، واختفت معالم الإسلام، وصار التوحيد عند أكثر الناس هو مجرد قول لا إله إلا الله. حتى قال علماؤهم: (من قال لا إله إلا الله لا يكفر وإن فعل ما فعل، وأن ما عليه أكثر الخلق من فعل الشرك وتوابعه، والرضى بذلك، وعدم إنكاره، لا يخرج من الإسلام).

هذا هو حال الغالبية العظمى ممن يسكن ديار الكفر في هذا الزمان، وهم أهل هذه الديار الذين قامت على أكتافهم دولة الكفر، وجرت عليهم أحكام الطاغوت، ما كان لهم أن يحملوا وصف الإسلام وقد جهلوا حقيقته.

وكما أن حال أهل ديار الكفر لا يخفى، فكذلك حكمهم في دين الله لا يجهله من عرف الدين الحق واتبع ملة إبراهيم عليه السلام، قال سبحانه: ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ (الممتحنة: ٤).

ومن شك في كفر هؤلاء القوم أهل دار الكفر – وهذا حالهم – أو توقف فيهم، أو حكم عليهم بالإسلام، فليراجع دينه ومعتقده، فما عرف الإسلام بعد.

والواجب علينا معشر المسلمين من آمن بالله وحده وكفر بما يعبد من دونه وتبرأ من المشركين، أن نجتمع على ما اجتمع عليه أنبياء الله ورسله، ولا نختلف فيه، ونطرح ما سواه، لتتوحد الكلمة ويجتمع الصف، ولا نجعل ما يلقيه أعداء الإسلام من الشُّبَه سبباً في زعزعة عقيدة الولاء والبراء الذي اجتمعنا عليها، لعل الله عز وجل أن يمكن لنا ديننا الذي ارتضاه، ويفتح بيننا وبين قومنا بالحق وهو خير الفاتحين.

والله نسأل أن يرينا الحق حقا ويرزقنا اتباعه، ويرينا الباطل باطلا ويرزقنا اجتنابه، وأن لا يجعل شيئا من أمر ديننا ملتبسا علينا فنضل.

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا الله أستغفرك وأتوب إليك

كتبه: أبو الفضيل ناصر الدين بن عبد الرحمن النعيمي

لا تنسوه من الدعاء